الإِنسان والبيئة

تأليف

لويس إسكندر

الكتاب: الإنسان والبيئة

الكاتب: لويس إسكندر

الطبعة: ٢٠٢١

الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)

٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكور- الهرم – الجيزة

جمهورية مصر العربية

هاتف: ٣٥٨٢٥٢٩٣ ـ ٣٥٨٦٧٥٧٦ ـ ٣٥٨٦٧٥٧٥

فاكس: ٣٥٨٧٨٣٧٣

http://www.bookapa.com E-mail: info@bookapa.com

دار الكتب المصرية

فهرسة أثناء النشر

إسكندر، لويس

الإنسان والبيئة / لويس إسكندر

– الجيزة – وكالة الصحافة العربية.

١٦٤ ص، ١٨*٢١ سم.

التـرقيم الدولي: **٥ – ١١٧ – ٩٩١- ٩٧٧- ٩٧٨**

أ – العنوان رقم الإيداع: **٣٠٥٣ / ٢٠٢١**

الإِنسان والبيئة

وكالة الصحافة العربية
«ناشرون»

مقدمة

«الإنسان والبيئة» بحث في الناحية الاجتماعية من علم الجغرافيا يرمي إلى بيان أثر البيئة في الإنسان ومبلغ خضوعه واستكانته لها أو مغالبته إياها. صراع دائم بين قوتين عظيمتين يتوقف عليه تدهور الإنسان أو تقدمه.

ولما كانت الناحية الاجتماعية هي أهم نواحي الدراسة الجغرافية لأنها تدور حول الإنسان وترمي إلى تبين العلاقة الوطيدة بينه و بين البيئة التي يعيش فيها، رأيت أن أقصر البحث على هذا الموضوع فقط راجيا أن أملأ بتلاك فراغا طالما شعرت بوجوده عند تدريس هذه المادة في السنة الخامسة الأدبية من مرحلة التعليم الثانوي. وقد لاحظت في بحث هذا الموضوع أن يكون شاملا للبيئات الإنسانية،كما يكون متبعا لحالة الإنسان في مراحل الجمع والصيد والوعي والزراعة والصناعة.

على أنني أشعر شعورًا عميقًا بقصوري عن الالمام بأطراف هذا الموضوع العظيم، وبعجزي عن تناوله بالدقة التي تتناسب مع أهميته، ولذا فإني ذيلت هذه المقدمة بأسماء بعض المراجع التي استندت اليها والتي يصح أن يرجع اليها من أراد التوسع في الموضوع.

وإلى مدين لزميلي الأستاذ محمر على أبو دره بالملاحظات القيمة التي أبداها، والانتقادات البريئة التي كان لها أحسن الأثر في ظهور الكتاب في هذا الثوب المتواضع.

لويس اسكندر

القاهرة في أكتوبر ١٩٣٦

البيئة وأثرها في الإنسان

الإنسان وليد الأرض، حضنته أمه وغذته ووجهت أفكاره في اتجاه خاص، وداعبته بصعاب زادت في قوته وشحذت من عقله وطرحت أمامه معضلات الملاحة والزراعة، ثم همست في أذنه طريقة التغلب عليها. اختلطت بعظامه وأنسجته وامتلأ بها عقله وروحه، فعلى المرتفعات زودت أرجله بعضلات حديدية يتسلق بها شاهق الجبال، وعلى شواطئ البحار تفخت في صدره وذراعيه كي يسيطر على قاربه ومجذافه. وفي وديان الأنهار قيدته بالتربة الخصبة وأحاطت أفكاره وأطاعه بسياج من الأعمال الهادئة الدقيقة وحصرت وجهة نظره في مزرعته الخاصة.

أما في المراعي الشاسعة والصحروات القاحلة حيث يتجول بقطعانه من مرعي إلى مرعى ومن واحة إلى أخري، حيث لا يعرف طعما للراحة ولا يصغي إلا النداء الحرية، حيث أعطته الطبيعة فراغا طويلا يترك فيه نفسه التأمل، فقد اصطبغت أفكاره بالبساطة المتناهية وأصبحت ديانته التوحيد بالله الفرد الذي لا شريك له، كرمال الصحراء وأعشاب السهوب، كائنا في كل مكان دون تبدل أو نهاية، وقد غذي عقله الجائع بهذا المعتقد البسيط طوال السنين فأضحى إيمانه تعصبا، وعظمت أفكاره عن البيئة التي أوجدته فانتشرت في مشارق الأرض ومغاربها.

والحق أن الإنسان لا يمكن دراسته دون الأرض التي يفلحها أو البحار التي يجوبها، لأن للبيئة الأثر الاعظم في تشكيل أعماله وغذائه وملبسه وأخلاقه ونظرته الدينية وأنظمته الاجتماعية. ولقد قام الصراع بين الإنسان وبيئته منذ القدم، فهو دائم الجهاد للتغلب عليها واستغلالها لمصلحته، فاذا كان مرنا لينا أنشد النغمة التي تحبها وتمايل مع نسيمها وتشكل حسب هواها وبذلك يملك ناصيها ويقبض على زمامها، أما إذا كان صلبا يابس العود اعترض عواصفها فكسرته وحطمته وبذلك يعيش من الناس الأصلح حسب قانون «بقاء الأصلح» **Survival of the Fittest**.

وآثار البيئة في الإنسان إما جثمانية أو نفسية أو اقتصادية واجتماعية.

الآثار الجثمانية (Physical Effects)

تؤثر البيئة في الإنسان من الوجهة الجثمانية كما تؤثر في النبات والحيوان سواء بسواء، ويضطر الإنسان إزاء هذا إلى أن يهيئ نفسه للوسط الذي يعيش فيه، فاذا لم يفلح في محاولته أو قضت عليه الظروف بتغيير وسطه تغير فجائيًا فإنه لا محالة منقرض.

فالهنود الذين يعيشون فوق مرتفعات الأنديز على ارتفاع ١٠ آلاف إلى ١٥ ألف قدم فوق سطح البحر يتمتعون برئتين قويتين وصدور عريضة، وذلك لتخلخل الهواء على هذا الارتفاع مما أدى مرور الزمن إلى تقوية ناحية خاصة من الجسم أصبحت متوارثة. فإذا انحدر هؤلاء إلى السهول تعرضوا للهلاك.

ويعزى قصر قامة السكان في بعض أجزاء أوروبا هضبة أوفرن Auvergne في جنوب فرنسا إلى قلة الموارد الغذائية في هذا الاقليم، إذ لوحظ أن أطفال هذه البقعة إذا نقلوا إلى جهات أخرى أكثر رزقا، كحوض اللوار أو الجارون مثلا، أصبح نموهم عاديا، كذلك نجد أن جماعة البشمن Bushmen المشتغلين بالصيد في صحراء كاهاري أقصر قامة من الهوتنتوت Hottentot الذين يشتهون بالرعي إلى جوارهم، كذاك قبائل الساموييد واللابس القاطنة في شمال أوراسيا أقصر من سكان سهوب آسيا؛ لأن الطبيعة المحيطة بهم فقيرة قاسية.

ولقد شوهد أيضا أن قبائل الهيدا Haida والتانجت Thingit المشتغلة بصيد الاسماك على سواحل ألاسكا وكولومبيا البريطانية يتميزون بصدور عريضة وأزرع قوية وسيقان ضعيفة، لأنهم يجلسون الساعات الطوال في قواربهم، وبذلك تنمو عضلات النصف الأعلى من أجسامهم لكثرة مرانها، وتضعف عضلات النصف الأسفل لركودها وقد لوحظت هذه الظاهرة أيضا في سكان جزيرة أرض النار Tierra del Fuego وجزائر الوشيان.

وتُؤثر أشعة الشمس أيضًا في لون البشرة فزاد السمرة كلما طال تعرض الإنسان للأشعة، ولذا نجد سكان الغابات الاستوائية الكثيفة أقل سوادا من سكان السفانا لقلة تعرضهم لأشعة الشمس نسبيا.

كما نجد سكان الشواطئ في الجهات المدارية أكثر سمرة من سكان الجهات الداخلية من نفس الإقليم لطول تعرضهم للشمس في أسفارهم وتنقلاتهم البحرية.

ومن المُلاحظ أيضا أن سكان البوادي أقوياء النظر لاتساع أرجاء بلادهم وكثرة مرانهم على النظر إلى الأفق البعيد.

الآثار النفسية (Psychical Effects)

تؤثر البيئة في عقلية الإنسان وأخلاقه تأثير عظيمًا، ففي الغابات الاستوائية حيث يتوفر الغذاء من ثمار وحيوان لم تتفتق قوى الإنسان العقلية، فما زال عاجز عن الابتكار، لا يفكر جدية في زراعة الأرض أو رعى الحيوان، ولذا أصبح قليل الشأن في تاريخ الإنسانية، كما امتلأت مخيلته بالخرافات واعتقد بوجود الأرواح والخيالات وذلك لوحشة الغابات وظلامها وأخطارها.

أما الرعاة في المراعي المعتدلة والصحروات الحارة فقد ميزهم الترحال والسفر بالشجاعة والاقدام وتحمل الصعاب وإكرام الضيف، كما أدى اتساع أرجائهم إلى اتساع خيالهم وصفاء ذهنهم ولم يجدوا من تعدد المظاهر الطبيعية ما يضطرهم إلى تعدد الآلهة فاعتقدوا بإله واحد يفسر لهم مظهرًا واحدًا ممثلًا في الرمال الشاسعة أو الحشائش البعيدة الأطراف.

كذلك أدى اشتغال الإنسان بالزراعة إلى تميزه بصفات الوداعة وحب المسالمة والرغبة عن الهجرة والميل إلى الخضوع للحكام والرؤساء بينما اشتهر سكان الجبال بالميل إلى الحرية، وعدم الخضوع للقوانين وكثرة الثورات التي ترمي إلى قاب نظام الحكم كما في اسبانيا والمكسيك.

وإنك لترى أثر البيئة ممثلا أحسن تمثيل في سكان الشواطئ الذين عودهم ركوب البحر تحمل الصعاب ومواجهة الأخطار وحب الهجرة، ولذا كان للأمم البحرية من فينيقيين وإغريق وهولنديين وانجليز شأن عظيم في الكشف الجغرافي والاستعمار والتجارة الدولية في العصور المختلفة.

كذلك أدى الاشتغال بالصناعة إلى شراسة أخلاق العمال وغلظة طباعهم وكرههم لأصحاب الأموال، وتسرب أفكار الاشتراكية بينهم، كما أدى إلى انخفاض قيمة الأديان بحيث أصبحت المعتقدات الدينية واهية واقتصر الناس على قشور الدين دون لبه ومظهره دون جوهره، غير أنها بعثت في القوم الثقة بالنفس والميل إلى الاستقلال وحرية الرأي.

الآثار الاقتصادية والاجتماعية

(Economical and Social Effects)

تتحكم ظروف البيئة في التقدم الاقتصادي والاجتماعي للإنسان فالمشاهد أن المشتغلين بالصيد أو الجمع قلما يقيمون طويلا في بقعة واحدة، وبذلك لا يمكنهم أن يعرفوا معنى للوطن كما أن الرابطة بين

أفراد أسرهم تسكون واهية لأن كل فرد يسعى إلى الحصول على رزقة دون التفكير في الآخرين، وبذلك لا يستطيع هؤلاء أن يكونوا من أنفسهم قبائل قوية مستقرة.

أما سكان الشواطئ الذين يعيشون على صيد الأسماك فإنهم يجدون من وفرة الرزق ما يغنيهم عن التجول الدائم، وبذلك يعيشون في أسر قوية تكون في مجموعها قبائل تعيش في قري ذات منازل ثابتة مستقرة. كذلك يكون رعاة الخيل في سهوب آسيا والإبل في الصحراء الكبرى وصحراء العرب قبائل قوية لها رؤساء يتمتعون بسلطة تشريعية وتنفيذية واسعة.

كما أن أفراد الأسرة الواحدة بينهم يشعرون بقوة العصبية ويتبادلون المحبة والعطف.

أما البيئة الزراعية كثيرة الخيرات، فإنها تسمح بكثرة عدد السكان وتستلزم ارتباط الأسرة، وتحتم قيام حكومة منظمة تسهر على مصالح الناس وتقوم بالمشروعات التي ترمي إلى تحسين الري والزراعة.

كذلك تؤثر البيئة في مركز المرأة في الهيئة الاجتماعية، إذ يلاحظ أن المرأة إذا كان نصيبها من العمل أقل من نصيب الرجل قلت مكانتها الاجتماعية كما في البيئة الرعوية والزراعية أما إذ شعر الرجل بأنها تقوم بمثل عمله وتتحمل مثل مسئوليته فإنه يحترمها ويعترف بحقوقها كما في البيئة البحرية والصناعية.

وهكذا نرى البيئة تتحكم في كل ماهر من مظاهر الحياة وتسيطر على كل عمل من أعمال الإنسان.

ويُلاحظ أن تغيير الوسط وما يتبعه من تغيير الحالة الاقتصادية يؤثر إلى حد بعيد في عادات الناس وأساليب حياتهم، فرعاة المغول والأريون الذين انحدروا من مرتفعات آسيا المجدبة إلى سهول الكنج والسند في الهند اتخذوا الزراعة مهنة لهم، وخلدوا إلى الراحة والكسل وفقدوا روح الترحال والمغامرة التي كانوا يتمتعون بها حين اشتغالهم بالرعي وأصبحوا سادة القوم يحكمون الملايين من الناس.

كذلك عند ما سكن العرب في مدن اسبانيا العظيمة وذهب عنهم شبح الفاقة الذي كان يهدد حياتهم في بادية العرب اشتغلوا بالزراعة وسكنوا القصور الفخمة واقتنوا العبيد والخدم فأفقدتهم النعمة الحادثة تلك الروح الجريئة التي كانوا يفاخرون بها، والتي كانت من أهم الأسباب في انتشار فتوحاهم وتكوين إمبراطوريتهم.

وهذا الترف الذي ساد حياتهم وما أعقبه من خمول يفسر لنا فشلهم في الاحتفاظ بملكهم طويلا في إسبانيا.

الباب الأول

الجماعون والصيادون

Food-Gatherers and Hunters

مقدمة

الغابات الاستوائية والتندرا

لا تزال الغابات الاستوائية الكثيفة المنظمة الحافلة بالأسرار الغامضة تطوى في بطونها السحيقة جماعات تعيش على جمع المار والصيد كالإنسان الأول، كما أن التندرا الجليدية التي تتوج أطراف القارات الشمالية ما فتئت موطنا لأقوام على الفطرة الأولى لا يسمون كثيرا عن مستوى ساكني الكهوف في الأحقاب الخالية. ولعل الطبيعة قد بسطت يدها للنوع الأول من الإنسان فأسبغت عليه خمولا أقعده عن العمل، وقبضتها عن النوع الثاني فخلفت عنده اليأس من التقدم، وفي كلتا الحالتين ظل الإنسان را كه الذهن قليل الشأن يحذو حذو الجد الأول، في مأ كله وملبسه ودقائق حياته. أو هو حائر يتردد بينما وصل ركب العالم إلى عصر السرعة والكهرباء!

وسندرس هنا أمثلة لتلك الجماعات التي لم ترق بعد إلا الدرجات الأولى من سلم المدنية الحديثة مبينين ما للبيئة من أثر في حياة الإنسان.

الفصل الأول

الجماعون والصيادون في الغابات الاستوائية

الموقع: تقع الغابات الاستوائية في المنطقة المحدودة بخطى عرض صفر و ١٠° شمالا وجنوبا من خط الاستواء وأهمها غابات الكنغو في أفريقيا الأمازون في أمريكا الجنوبية وجزائر الهند الشرقية والملايو في جنوب آسيا.

المناخ: وتتميز هذه الغابات بغزارة أمطارها في الربيع والخريف وقتها في الصيف والشتاء، ودرجة الحرارة فيها مرتفعة على مدار السنة وقاما تنخفض عن ٨٠ ف ولذا كان الفرق الفصلي معدومًا تقريبًا.

النبات: وتتوفر في الغابات الاستوائية عوامل نمو النبات وهي الحرارة والماء، ولذا كان نموه هناك سريعا وكانت الأشجار ضخمة مرتفعة مشتبكة الأغصان لا يكاد ضوء الشمس ينفذ خلالها إلى داخل الغابة وقد أدى الصراع على الحياة إلى كثرة وجود النباتات المتسلقة التي تلتف حول غيرها ساعية إلى الضوء فوق أطراف الأشجار الأخرى.

الحيوان: وأهم حيوان تلك الغابات القردة والثعابين، كما يعيش على أطرافها المر والأسد والفيل وغيرها من الحيوان المفترس، وتكثر في أغصان أشجارها الطيور ذات الألوان الجميلة التي تتمثل فيها ألوان الزهور والنباتات الاستوائية الرائعة.

وتقطن الغابات الاستوائية جماعات منحطة ذات لون أسود ضارب إلى الصفرة نذكر من بينها جماعة **Fan** في الكنغو و**Semang** في الملايو.

«الفان» في الكنغو The Fan

كان غنى الطبيعة في الغابات الاستوائية سببا في سهولة الحصول على الرزق وإذا بحثنا أعمال رجال هذه الجماعة وجدناها تنحصر في جمع الفاكهة أو صيد الأسماك والحيوانات الصغيرة أو قطع الأشجار لبناء الأكواخ الصغيرة. أما النساء فيقمن بتحضير الطعام وتجفيف الأسماك والفواكه واللحوم.

الغذاء: وينحصر غذاء القوم في أكل الفاكهة والأسماك وبعض النباتات. أما الفاكهة فمعظمها ينضج في شهر فبراير فيقومون ببعض رحلات قصيرة إلى مواطن الفواكه حيث يبنى الرجال معسكرًا مؤقتًا وتقوم النساء يجمع الفاكهة وطبخها وتجفيف بعضها بقدر ما تسمح به معلوماتهن الضئيلة ومواردهن القليلة.

أما الأسماك فأنها تكثر في فصل الصيف أي عند ما يقل المطر فينضب ماء البحيرات والأنهار الصغيرة وعندئذ يسهل صيد السمك الذي يصبح غذاءهم الرئيسي طوال مدة وجوده، كما أن النساء تجففه

وتحفظه للمستقبل لاستعماله إذا شحت موارد الرزق الأخرى، أما الحيوانات فقلما يمكنهم الحصول عليها إلا في الفصل المطير حينما

يتمكن القوم من الاحتيال على صيدها إذ يتعذر السير على الكثير منها فيحصرونها في جهات خاصة حيث يحفرون لها حفرا تتردى فيها فيذبحونها ويجففون الكثير من لحمها لحفظه لوقت الحاجة.

الزراعة: ويلاحظ مما سبق أن غذاء القوم ليس مستقرة ولذا اضطرت هذه الجماعات وأمثالها إلى الالتجاء إلى الزراعة في أبسط أشكالها.

ولكل منها مزرعة خاصة بها. وتبدأ عملية الزراعة بأن يقوم الرجال بتطهير الأرض وقطع الأشجار الضخمة، وذلك في فصل الجفاف ثم يحرقون الأعشاب لتسميد الأرض، وعندئذ ينتهي عمل الرجال ويقوم النساء بدورهن بزراعة الموز والمانيوك والأذرة ثم ترويها الأمطار طوال العام. ويلاحظ أن هذه المزرعة لا تدوم أكثر من سنتين لأن الغابة تطغى عليها فيضطر السكان إلى إنشاء مزرعة أخرى جديدة.

التنقل والهجرة: ولذا فأنهم يبتعدون دائما عن موطنهم الأصلي ويؤدي ذلك في النهاية إلى الهجرة إلى قرية جديدة تكون قريبة من المزرعة الحديثة.

وفي الكثير من الأحيان تكون الهجرة بسبب انتشار مرض وبائي يحدث تشاؤم في أفكار القوم، أو بسبب غارة بعض الحيوانات المفترسة كالفيلة. وفي حالة الهجرة يترك الرجال الأشداء القرية أولا باحثين عن مكان آخر يصلح لتشييد القرية الجديدة حتى إذا تم لهم بناء المساكن هاجرت النساء والأطفال حاملات الأواني والأثاث والحاجيات، ولذا فقلما تدوم القرية أكثر من خمس سنوات.

القرية: وتبني أكواخ القرية من الأخشاب الوفيرة في صفين متقابلين أو في دوائر، وفي مقدم القرية كوخ كبير يجتمع فيه رجال الجماعة، ويستقبلون فيه الغرباء، كما يعتبر مكانا للحراسة. ولكل كوخ باب خلفي ينفذ إلى قطعة من الأرض تستعمل لجلوس النساء وطهي الطعام وبها يزرعون القليل من الموز والبطاطة وهذه تسد حاجة الأهلين إذا تعذر عليهم الصيد وقت ما.

وتقطن بعض الجماعات في الغابات الاستوائية أكواخ معلقة على أغصان الأشجار خشية الحيوان المفترس وهؤلاء أحط من غيرهم.

الملبس: ويكاد ملبس الجميع يقتصر على ما يستر العورة، والكثير منهم لا يلبسون شيئًا مطلقًا.

العقلية: ولقد أدى غنى الطبيعة في الغابات الاستوائية وسهولة الحصول على الرزق وتشابه أيام السنة إلى انحطاط القوى الفكرية بين السكان وكسلهم وعجزهم عن الابتكار ولذا لا يحجمون عن قطع الأشجار للحصول على فاكهتها ولا يفكرون في استنباتها، كما يقتلون الحيوان دون التفكير في رعيه، ولا يترددون في تسميم المجاري المائية للحصول على أسماكها، ولا يفكرون في تهيئة الأرض للزراعة وصفة دائمة بل يتركونها بعد فترة قليلة إلى غيرها، وهكذا تجدهم ينسون الوسط الذي يعيشون فيه ويقلون من صلاحيته للحياة.

ومن المشاهد أنه إذا ازدادت عزلة الجماعة عن العالم، وقل احتكاكها بغيرها، كان ذلك داعيا إلى شدة تأخرها وتدهورها والواقع أن أقزام غابات الكنغو (The Pygomies) لا يتميزون كثيرا عن الحيوانات في مستواهم العقلي فلا يفكرون في شيء، ويتناسلون كأحط أنواع الحيوانات وليس للعفاف عندهم قيمة وهم غلاظ القلوب لا يرحمون غيرهم ممن يقع في أيديهم.

المعتقدات: ولوحشة الغابات وظلمتها ووعرة مسالكها وكثرة حيوانها المفترس أثر في تكييف معتقداتهم الدينية، فهم يعتقدون بوجود الأرواح في الفضاء، والسحر. والخزعبلات منتشرة بينهم، ولذا يقدمون الهدايا والقرابين للأرواح الخفية خشية بطشها.

الرابطة العائلية: والرابطة العائلية عندهم مفككة جدًا لعدم الاستقرار وليس هناك عطف كبير بين أفراد الأسرة ولذا لم تؤد هذه الحالة إلى قيام حكومة أو وجود قانون يخضعون له. ولا هم لهم إلا إشباع غرائزهم من أي طريق غير متبعين في ذلك أنظمة أو قواعد مرعية.

"السيمانج" في الملايو The Semang

الجنس: تنتقل الآن إلى دراسة جماعة أكثر تأخرا وتدهورا وهي جماعة السيمانج في الجهات الجبلية من الممتلكات البريطانية في شبه جزيرة الملايو. وهم زنوج قصار القامة لا يكاد يبلغ طول الرجل منهم خمسة أقدام وتقل المرأة عن ذلك كثيرًا بشرتهم سوداء ضاربة إلى الصفرة ويتميزون بشفاه مفرطحة وعيون نفاذة وشفاه غليظة وشعر مجعد

ملتو ولا تنمو هم لحى وهم في هذه الملامح يشبهون كثيرا زنوج أفريقيا، والجميع يطلق عليهم علميا اسم Negritoes.

والسيمانج لا يعرفون الزراعة مطلقا، وليس لهم حيوان مستأنس. ولذا يعيشون على جمع المار فقط: وقد أدى ذلك إلى تنقلهم وقلة عدد جماعاتهم. أذ قلما تزيد الجماعة الواحدة عن ثلاثين شخصا.

الجماعة: ولكل جماعة من هؤلاء قطعة من الأرض لا تزيد عن عشرين ميلا مربعا توارثوها بمرور الزمن وأصبحت تبعا للعرف والتقاليد ملكا لهم دون غيرهم، ولهم وحدهم حق اقتناء فاكهتها ولو أن لكل الجماعات حق الصيد وأكل جذور النبات في أي مكان، ولبطء انتقال هذه الجماعات كان احتكاكهم بغير هر ضئيلا الا في حيز ضيق حيث تتعارف جماعتان أو ثلاث، وتصبح لهم لهجة كلامية مفهومة لدى الجميع، ويسود بينهم إلى حد بسيط شعور الجماعة Some Sense of Community.

غير أننا لا يمكننا أن نطلق عليهم اسم قبيلة لأنهم لا يتبعون أنظمة خاصة في حياتهم، وقلما تربط لغة واحدة أكثر من جماعتين أو ثلاث.

تدهور العقلية: وعندما يبلغ الفرد منهم الثامنة عشرة يختار زوجة له من جماعة العقلية

مجاورة ويعيش مع أهل زوجته سنتين أو ثلاث ثم يعود إلى عشيرته. ومن الصعب علينا أن نتصور ذلك الحيز الضيق الذي يقضي فيه الفرد حياته مختلطا مع أفراد قلائل من أهله وقلما يبتعد كثيرا عن موطنه أو

يختلط بالأجانب، ولذا اقتصرت معلوماته على ما يسمع من كبار الجماعة وهذ يفسر لنا بطء تغير حياة القوم وصعوبة تقدمهم في مضمار المدنية.

الغذاء: وينحصر غذاء هذه الجماعات في الثمار والجذور وتحملها الغذاء النساء في سلال مصنوعة من أشجار الخيزران وقلما يهتم القوم يحفظ الفاكهة أو أي نوع من الطعام الوقت الحاجة.

ولذا نجدهم دائمي الجمع، وفي بعض الأوقات يصيدون الحيوانات الصغيرة كالفيران والطيور والقردة، ويستعملون في صيدها العصي ذات الأطراف المدببة الصلبة، والأقواس ذات السهام المسمومة. ولهم طريقة بسيطة في صيد الطيور، يضعون مادة لزجة على ألواح من الخيزران، حتى إذا حط الطير عليها التصق بها. ويصيدون الأسماك الصغيرة من المجاري المائية خصوصا وقت انخفاض الماء بها غير أنهم لا يسممون الماء كما يفعل «الفان» "**The Fan**" في الكنغو كما قدمنا.

وبالرغم من كثرة عبورهم للأنهار، لا نجد لهم إلا أطوافًا **Rafts** من الخيزران وهذا يدل على مبلغ قصورهم عن الابتكار ورغبتهم عن إعمال الفكر.

الملبس: ولا يختلفون في ملبسهم عن غيرهم من سكان الغابات الاستوائية إذ يكتفون بتغطية العورة بأوراق الأشجار أو جلود الحيوان وتلبس النساء أحيانا أمشاط امن أشجار الخيزران للزينة فقط.



مشط نسائي

غنى الطبيعة: ومن العرض السابق لحالة الإنسان في الغابات الاستوائية نستنتج أن ساكن تلك الغابات يجد من غنى الطبيعة ما يصرف ذهنه عن بذل مجهود للحصول على طعامه: أمامه ثمار كثيرة تنمو دون غرس، وإلى جانبه قنوات ومستنقعات غاصة بالأسماك يصيدها دون مجهود، وفي متناول يده الكثير من الحيوانات الصغيرة يقتنصها على مهل. وبذا خمدت فيه روح العمل وقل إنتاجه وأصبح عالة على الطبيعة الغنية المحيطة به، وهذا أكبر عامل في تأخره وبقائه حتى الآن في مستوى لا يزيد كثيرًا عن مستوى رفاقه من حيوانات المنطقة.

تشابه الأيام: وهناك ظاهرة أخرى يمكن ملاحظتها في تلك الأصقاع، ظاهرة لا تقل أهمية عن السابقة كانت بدورها داعية إلى ركود ذهن تلك الجماعات وتأخرها، تلك هي تشابه أيام السنة دون تبدل في المناخ. فالحياة في الغابات الاستوائية على وتيرة واحدة، قلما يختلف يوم عن سابقه ولذا لا يتعدى تفكير الإنسان هناك إلى غده، وهو في ذلك يخالف الإنسان في العروض المعتدلة، حيث تختلف فصول

السنة، فهناك الفصل الجاف والمطير والمناخ الحار والمعتدل، مما يستلزم التفكير واليقظة والعمل للمستقبل، فيزرع الإنسان في وقت ويجني الثمار في وقت آخر، ويقتصد في فصل الرخاء ما يسد أوده في فصل الجدب، أي أنه يقوم بعمل يعود عليه بفائدة محسوسة تشجعه دائما على مضاعفة الجهد لتضعيف الإنتاج، وفي ذلك اضطراد التقدم والرقي. ولذا ففي الوقت الذي كان العالم أجمع يتخبط في دياجير الهمجية كان بدهيا أن يعيش في العروض المعتدلة إنسان أقل همجية من ساكن الغابات الاستوائية الذي عجز عن مقاومة الطبيعة أو استغلالها لمصلحته وأورثه المناخ الحار عجز أقعده إلى العصر الحاضر عن إظهار شخصيته، فأصبح كمية مهملة في عناصر الحياة.

الفصل الثاني

الجماعون والصيادون في التندرا

التندرا: والآن ننتقل بالقارئ إلى مسرح آخر من مسارح الحياة، تلعب عليه الطبيعة دور الشحيح البخيل فتقبض يدها عن الإنسان قبضا يكاد يقتله، فيستنفد كل مجهوده ليستخلص من الطبيعة المجدية القاسية ما يكفيه شظف العيش وبذا يظل أبد الدهر شاردا هائما. ذلك المسرح هو الأصقاع الشمالية دائمة البرودة التي يطلق عليها اسم تندرا **Tundra**. ولنبدأ بدراسة إحدى الجماعات المشتغلة بالصيد في شمال شرق سيبريا.

اليوكاغير The Yukaghir

تقطن هذه الجماعات حوض نهر كوليما **Kolyma** الأدنى في شمال جبال فركو يانسك واستانوفوى.

المناخ: ومناخ هذه الأصقاع شديد البرودة بحيث تتجمد مياه الأنهار ثمانية أشهر في السنة، وتنخفض درجة الحرارة في الشتاء إلى أكثر من ٦٠° ف تحت درجة التجمد، وبذا تصير هذه البقاء صحراوات جليدية بيضاء لا أثر للنبت فيها، وتكاد تنعدم فيها معالم الحياة، حتى إذا قارب الصيف بدأت تذوب الثلوج فتتحول الأراضي إلى مستنقعات وتكثر المجاري المائية وتنمو بعض النباتات والأعشاب القصيرة والطحالب التي يعيش عليها غزال الرنة.

غزال الرنة: وهو أعظم حيوانات هذه المنطقة فائدة للجماعات القاطنة فيها، فهو مصدر غذائهم وملبسهم وينتقل إلى الغابات الصنوبرية في الشتاء هربا من الثلج حيث يعيش على النباتات القليلة التي تغطيها طبقة رقيقة من الجليد في استطاعته أن يفتها بحافره الصلب، ثم يترك هذا المأوى في الصيف إلى الشمال هربا من الناموس المنتشر وسعيا وراء العشب الذي يكثر إذ ذاك في التندرا بعد ذوبان الجليد. ويوجد من الحيوانات في تلك الأصقاع عدا غزال الرنة الأرنب القطبي والوعل والكلب كما تكثر الأسماك في الأنهار في فصل الصيف.

الجنس: واليوكا غير من الجنس المغولي وهم قصار القامة ذوو وجوه ضيقة مفرطحة وتميل بشرتهم إلى اللون الأصفر وشعرهم خشن مستقيم.

الملبس: ويلبسون أغطية من جلود الرنة تصل إلى الركبة، وفي الشتاء يلبسون أكثر من رداء واحد تغطية فروة الحيوان، كما يلبسون في أرجلهم أحذية جلدية طويلة اتقاء البرد.

الجماعة: ولا يزيد عدد الجماعة الواحدة عن مائة شخص يملكون قطعة خاصة من الأرض يصيدون فيها بحيث لا يعتدون على ممتلكات غيرهم.

التنقل: وهم يتنقلون في فصل الشتاء في الغابات الجنوبية على زحافات من الخشب لا يزيد طول الواحدة منها على خمسة أقدام تجرها الكلاب الأليفة، حيث يصيدون غزال الرنة والوعول. أما في الصيف حين تذوب الثلوج فينتقلون في قوارب مصنوعة من جذوع الأشجار إلى التندرا حيت يصيدون البط المائي والأسماك الكثيرة التي يجففونها ويأكلونها في فصل الشتاء الطويل.

المسكن: وهم خلال السنة يسكنون في خيام من جلود الرنة ذات شكل مخروطي ويغطى أسفل الخيام في الشتاء بطبقة من الجليد للدفء.

الرئيس: ويرأس هذه الجماعات أقدر الرجال، وله سلطة واسعة على أفراد الجماعة، فهو الذي ينتخب أماكن الصيد ويعطى لكل فريق بقعة خاصة، ويرسل الصيادين في جهات معينة للصيد، ويعين مكان اللقاء عند ما تتفرق الجماعات الصيد وجمع النبات وهو الذي يتسلم من الصيادين ما حصلوا عليه، فتوزعه زوجته على الأسر المختلفة، كما أنه يرأس احتفالاتهم وولائهم، ويتحتم عليه أن يكون شجاعًا مقدامًا لا يبالي بالأخطار. وكثيرًا ما تعقد الجماعات في فصل الصيف احتفالات يلعبون فيها العابا مختلفة يظهرون فيها قوتهم الجثمانية، كما يقوم رجال السحر ويسمون Shamans ببعض الألعاب السحرية.

وهم الذين يطردون أرواح الموتى من الخيام بعد موتهم، إذ يأتي الرجل منهم في لباس غريب، ومعه طبلة لها دوي مخيف، ثم يبدأ في الرقص السريع ويدور حول نفسه دو رات مزعجة، حتى إذا ما انتهى من الرقص قرع الطبل قرعًا مروعًا حتى تخرج الروح من الخيمة.

وتكاد هذه الجماعة تنقرض الآن، فأن أغلب أفرادها ينضمون إلى القبائل المشتغلة بالرعي إلى الجنوب منهم، غير أن اليوكاغير يمثلون بحق تلك الجماعات التي تعيش على الجمع في أصقاع قاسية المناخ إلى درجة تكاد تتعذر فيها الحياة.



معسكر صيفي لجماعة اليوكاغير

والآن ندرس جهات أخرى شبيهة بهذه تقطنها جماعات مماثله ونرى صورة أخرى من الحياة في الأصقاع القطبية لنتبين مبلغ التشابه في مؤثرات البيئة المحيطة بالإنسان. هذه الجماعات هي:

الاسكيمو The Eskimo

الجنس: هي جماعات متشابهة في العادات واللغة والمظهر والجنس متجانسة الحضارة منتشرة في شمال أمريكا الشمالية من جرينلند إلى مضيق «برنج» ويشبهون المغول الساكنين في شمال شرق سيبيريا في قصر القامة وتفرطح الوجه وخشونة الشعر وسواده ويظن كثير من العلماء أنهم هاجروا من شمال آسيا إلى موطنهم الحالي عن طريق مضيق «برنج» منذ أكثر من ألفي عام، مستندين في ذلك إلى تشابه آلات الصيد والقوارب والملابس عند الأسكيمو و مغول شمال شرق سيبيريا ويظن البعض الآخر أن الأسكيمو يرجعون إلى جنس كان يسكن في شمال كندا وهاجر إلى الأصقاع الشمالية مم كيف نفسه حسب ظروف بيئته الجديدة، ويدعمون هذا الرأي بتشابه جنسي بين بعض قبائل الأسكيمو وبعض قبائل الهنود الساكنين على حدود التندرا إلى جنوبهم.

الصيد: ويمضي الأسكيمو وقت الشتاء قرب الشواطئ لصيد حيوان عجل البحر (**Seal**) وهو أعظم الحيوانات فائدة للأسكيمو، ويعيش هذا الحيوان في الشتاء تحت طبقات الجليد التي يحفر فيها حفرة صغيرة يستنشق منها الهواء بين آن وآخر ويتربص به الاسكيمو عن قرب وبأيديهم خطا طيفهم الطويلة **Harpoons** حتى إذا استدلوا على وجوده بحت إحدى الحفر قذفوه بمحرابهم بمهارة فائقة وأخرجوه منها.

أما في الربيع حين يكثر هذا الحيوان على الشواطئ فيتمكن الاسكيمو من صيده بسهولة وفي كميات وفيرة. وكذلك يصطادون الحيتان في قوارهم الصغيرة المسماة **Kayaks** أما في فصل الصيف حين تذوب الثلوج وتنمو النباتات والطحالب القصيرة، فإن حيوان الكاريبو **Caribou** وغزال الرنة تنتقل إلى الشمال فيوجه الاسكيمو جهودهم إلى صيدها في جماعات، اذ يتربصون بها ويدفعوا إلى بعض البحيرات الصغيرة حيث يختبئ الرجال في قواربهم الصغيرة فيهاجمون القطعان محرابهم؛ أو ينتظرونها في بعض الوديان حيث يقتلونها بسهامهم.

ويصيد الأسكيمو الأسماك بكثرة في هذا الفصل أيضًا حيث تكثر عند مصبات الأنهار وقرب الشواطئ، ويستخدمون في صيدها الشباك والحراب والصنانير.

مما تقدم ترى أن الاسكيمو يعيشون على أكل لحم الحيوان ولذا استحقوا اسم **Eskimantsic** ومعناه أكلة اللحوم النيئة.

المسكن: ويسكن الاسكيمو في فصل الشتاء في أكواخ من الجليد، أو يحفرون في الأرض حفرًا يغطونها بضلوع الحيوان أو الأخشاب إن وجدت. وليس لمثل هذه الأكواخ إلا مدخل واحد يصل إليه الإنسان من ممر ضيق طويل، وذلك انتقاء البرد وخوفا من هجوم الحيوان المفترس، وإذا حل الصيف ذاب الجليد وانتقلوا إلى خيام تصنع عادة من جلود الحيوان.

ولطول جلوس السيدات داخل هذه الأكواخ متر بعات أصبحت أرجلهن مقوسة.

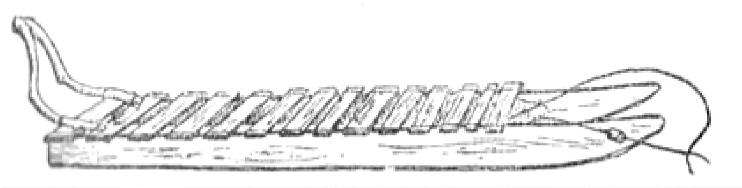
عجل البحر: والحيوانات البحرية عند الاسكيمو أهم بكثير من الحيوانات البرية ولذا لا يصيدون الكاريبو مطلقًا في الشتاء، وهو الزمن المخصص لصيد حيوان عجل البحر scal الذي يعتبر عجل البحر أساس حياتهم، فمن جلده يعملون الأحذية، ويلبسون الأجزاء ذات الفراء من جلده لتقيهم شر البرد، كما يغطون قواربهم الصغيرة جلده السميك، ويتخذون طبولهم من الأجزاء الرقيقة منه.

ومن عظامه يعملون الصنانير للصيد وبشحمه يضيئون مصابيحهم الضئيلة، كما يدهنون أجسامهم بزيته.

الملبس: أما ملبس هؤلاء القوم فغالبه من حيوان الكاريبو لأنه أخف وأكثر تدفئة من جلد عجل البحر Seal وفي بعض الأحيان يلبسون فراء الدب القطبي، وملابسهم معتني بها ويقوم النساء بتفصيلها وحياكتها بدقة يتجلى فيها الشيء الكثير من الفن أحيانا، وتكاد ملابس الرجال والنساء تتشابه حتى ليتعذر على الإنسان التفرقة بين الجنسين إذ لا تنمو للرجال لحى.

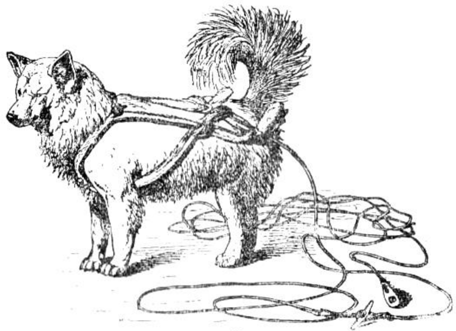
التنقل: ويستعمل الأسكيمو في تنقلاتهم الشتوية زحافات من عظام الحوت أو الخشب تجرها الكلاب.

أما في تنقلاتهم الصيفية فأنهم يستعملون القوارب الخفيفة المصنوعة من عظام الحوت أو الخشب المغطى بجلد عجل البحر Seal، وسطح القارب مغطى كله إلا تجويف بسيط يجلس فيه الإنسان ومعه مجدافه المزدوج.



زحافة يستعمل في جرها الكلاب

الأسكيمو الآن: ولا يزيد عدد الأسكيمو الآن عن ٤٠ ألفا أغلبهم في جنوب جرينلند والاسكا حيث اختلطوا كثيرا بالبيض وتأثروا بمدنيتهم ويعيش هؤلاء في جماعات صغيرة متناثرة تحتل كل منها جزءا من الشاطئ ولا يربطهم بعضهم سوى تشابه في اللهجات نتيجة الجوار والاختلاط البسيط.



كلب يهيأ لجر الزحافة

وفي كثير من الأحيان يتزوج الرجل أكثر من امرأة واحدة من جماعات مختلفة حتى يتاح له الصيد في بقاع كثيرة. وليس لهم زعماء أو قادة إلا في حالات خاصة كرحلات الصيد مثلا، وعندها يختار الزعيم حسب مهارته وسعة اطلاعه.

الرحلات: وقد تبدأ رحلاتهم هذه في أول الصيف وتستغرق ثلاثة أو أربعة شهور وقد تمتد إلى سنة ولذا تجدهم قبل البدء في الرحلة يرسمون خرائط لسيرهم تمثل البلاد المجاورة والمسالك والوديان إلى مسافة تقرب من المائة ميل. في دقة عظيمة بحيث لا تفترق كثيرة عن خرائطنا الحالية.

الفن: ونظرا لعدم اهتمام الاسكيمو بمرور الزمن تجدهم نساء ورجالا الفن يهتمون كثيرا بزخرفة ملابسهم ومقابض حرابهم بحيث يتجلى فيها الشيء الكثير من الفن كما تظهر الدقة التامة في خرائطهم التي تمثل تضاريس البلاد المحيطة بهم.

الجنة: والاسكيمو على العموم قوم مرحون نهمون ويستخلصون من الحياة بقدر ما تسمح لهم ظروفهم. وفكرتهم عن الجنة ترينا صورة من حياتهم بتقلباتها وفقرها وغناها إذ يعتبرون الجنة «متسعا فسيحا من الجليد تصطلى عليه عجول البحر في ضوء الشمس وتحوطه التندرا بأعشابها وطحالبها حيث يعيش غزال الرنة».

في الطبيعة: هذه صورة لحياة الإنسان في الأصقاع القطبية يتبين منها القارئ أن الطبيعة الفقيرة المجدية تحكم على الإنسان بالتأخر والتدهور الدائم. إذ تتقاضاه أمن مجهوده للحصول على طعامه. على ما هذا الطعام من خشونة، وبذا لا يدخر من الجهد ما يوجهه إلى نواح أخرى من النشاط تسبب رقيه وتقدمه.

وما الإنسان في تلك البقاع إلا صورة من رسم الطبيعة نفسها لاحول له معها ولا قوة. إذا جادت عليه بالرزق عاش متنقلا من واد إلى شاطئ بحر. وإذا استعصى عليه الحصول على الرزق نبش القبور وأكل الجيف. وقتل الضعيف والمسن وبعبارة أخرى انقلب وحشا لا قلب له.

وبذلك ظل الإنسان طوال العصور في تلك الأصقاع وهو في المهد من الناحية المدنية.

هذه صورة مبسطة عن الحياة في الغابات الاستوائية ثم في الأصقاع القطبية. ومنها نرى أثر الطبيعة الغنية والفقيرة في حياة الإنسان ونعلم أن تلك البقاع كانت ولا تزال موطنا للجماعين والصيادين من بني الإنسان. وهم في كل أطوار حياتهم يعتمدون اعتماد كليا على الطبيعة. ولم يتمكنوا من تحسين الوسط الذي يعيشون فيه ولذا ظلوا تلك العصور الطويلة في أقل أوضاع الحياة شأن. ولم يستطيعوا الخروج عن نظام الجماعات المتناثرة إلى نظام القبائل شأن الرعاة أو الزراع.

الباب الثاني

الرعاة

Pastorals

الفصل الأَول

رعاة الخيل في سهوب آسيا

هنالك في سهوب آسيا المترامية الأطراف ميدان آخر للنشاط الإنساني فيه يرتفع الإنسان عن مستوي الجماعات التي سبق ذكرها في الغابات الاستوائية والتندرا، ويرعى الحيوان بدل صيده وبذلك تتشكل حياته وتصطبغ بصبغة خاصة وينضج فكره قليلا ويرتبط أفراد المجتمع ارتباطا وثيقا فتتخذ كل قبيلة رئيسا محترما تكون كلمته لديهم بمثابة القانون.

وبذلك يتطور نظام الجماعات المتفرقة إلى نظام القبائل وسنأخذ مثلًا:

قبائل القرغير The Kirghis

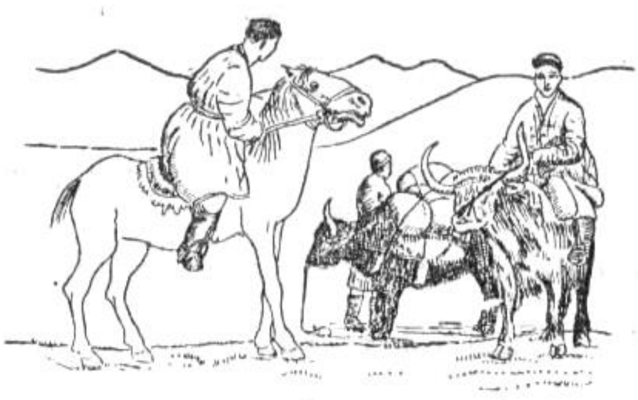
الموقع والمناخ: تسكن هذه القبائل مع غيرها من قبائل الرعاة كالكازاك Kazak في السهول الواسعة الممتدة من أركتسك إلى بحر قزوين غربا ومن نهر أورال إلى نهر سرداريا وهي معرضة لمؤثرات وظواهر مناخية متباينة. ففي الربيع تكون الأرض خضراء يانعة غنية بأزهارها. حتى إذا أقبل الصيف بحره اللافح ذبلت الحشائش واكتسبت الأرض لونا أشهب وهرع القوم إلى الربي القريبة يطلبون الكلأ.

ثم يأتي الخريف ويعقبه الشتاء ببرده القارس فيغطي الجليد الأرض وتتجمد مياه الأنهار فيهبط القوم من الجبال ويتجمعون في الوديان حيث يقضون فصلا موحشا تختفي فيه معالم الحياة.

عمل الإنسان: ويخضع الإنسان في بيئة المراعي خضوعا كبيرًا للطبيعة ومؤثراتها. وإذا رجعنا إلى الكتب المقدسة وجدنا فيها وصفًا مسهبًا للإنسان في هذه البيئة في حالته الفطرية. وإذا كانت هذه الحالة تخالف قليلًا ما نجده في الوقت الحاضر، فذلك لأن انتشار طرق المواصلات قد انتزع من هذه البيئات عزلتها عن عمل الإنسان العالم الخارجي. وعمل الإنسان في المراعي محدود بالطبيعة إذ طالما لا تتوفر الظروف الملائمة للزراعة وجب اشتغال القوم بالرعي ويوزع العمل على أفراد القبيلة رجالًا ونساءً، فالشابات من النساء يجلسن داخل الخيام يغزلن الخيوط وينسجن القماش. أما المتقدمات في السن فيصنعن الزبد، ويشتغلن في طبخ اللحم.

والفتيان يرعون القطعان في الوديان وعلى سفوح الجبال وهم الذين يستطلعون عيون الماء وأصلح بقاع الكلأ. أما الشيوخ فيصلحون سروج الخيل والأحذية ويصنعون الأواني المنزلية فإذا جن الليل سيقت القطعان إلى جوار الخيام حيث تقوم النساء بحلبها. والقطيع هو أساس حياتهم وأهم أنواعه الحصان إذ يستخدمونه في الاشراف على القطيع الكبير العدد، كما أن مقدرته على تسلق المرتفعات وسرعة عدوه مكنهم من كشف البقاع والوصول إلى أصلح مواطن الكلأ كما يساعدهم على

الرحيل من بقعة إلى أخرى، ولذا كان سكان المراعي من أمهر الناس في ركوب الجياد وأقدرهم على تذليل الجامح منها. ويلي الحصان في الأهمية حيوان الياك **Yak** والضأن والماعز ثم الماشوهي أقل الأنواع أهمية لأنها تحتاج إلى عشب طويل وهو نادر الوجود في هذه المراعي (المعتدلة).



راكب الحصان راكب الياك من الفرغيز

التجارة: وكثيرا ما يشتغل الرعاة بالتجارة مع القبائل المجاورة فيأخذون منهم ما يحتاجون اليه في مقابل ما يزيد عن حاجياتهم. ومثال ذلك قبائل القرغيز فانهم يبادلون الخيول والضأن بالحبوب والملابس والأواني الخشبية في أسواق مدينة بخاري كما يشتغل كثير من الرعاة كوسطاء بين القبائل ذات الإنتاج المختلف الواقعة على حدودهم.

الغذاء: ويأكل الرعاة ما ينتجه القطيع من لبن وزبد وجين ولحم والسمك المجفف أحيانا. والغذاء اليوم هو الخبز واللبن. ولا يأكلون

اللحم إلا ثلاث أو أربع مرات في الشهر. وهم لا يمتنعون عن أكل لحم الحيوان الذي يموت موتا طبيعيا، ولذا يجففون هذا اللحم في الصيف لاستعماله في فصل الشتاء. ولا يأكلون من اللحم كميات كبيرة إذ قد يكفي الخروف من خمسين إلى مائة شخص لأنهم لا يتركون شيئا في الحيوان حتى أحشاءه وعظامه وقد سن جنكيز خان وهو أحد قادة الرعاة المغول في القرن الثالث عشر قانونا بهذا المعنى.

الملبس: ويلبس هؤلاء الرعاة أردية واسعة من وبر الحيوان وصوفه، وتقوم الشابات من النساء بغزها ونسجها داخل الخيام أثناء النهار.

المسكن: وليست مساكنهم ثابتة دائمة، بل هي خفيفة يسهل حملها ونقلها من جهة إلى أخرى، لأنهم كثيرو التنقل والهجرة. ومساكنهم في الصيف خيام من وبر الحيوان. وفي الشتاء تصنع من الغاب وتغطى بالطين اتقاء البرد. ولا يوجد بخيامهم إلا ما خف من الأثاث وذلك لأنهم عرضة للانتقال الفجائي ولذا كان رأس مالهم هو القطيع. وإذا توفر لديهم ذهب أو فضة صاغوها حليا تتحلى بها النساء حتى لا يتعين في حملها عند الهجرة.

التنقل: ويتميز سكان المراعي بأنهم يعتمدون على بيئتهم في سد عوزهم Self-Sulficing Community، وبأن روح الترحال متأصلة في نفوسهم، فيرحل القرغيز الذين يسكنون سهول التركستان الروسية إلى سفوح جبال الطاى طلبا للكلأ والماء في الربيع والصيف وهذه هي هجراتهم الفصلية Seasonal Migrations.

كما تضطر بعض القبائل أحيانا إلى السطو على أملاك غيرها من القبائل إذا ما انقطع المطر وذبلت الحشائش وأصبحت حياة القطيع في خطر، وهذه أمثلة من غاراتهم Raids التي تحتمها الطبيعة. وتولد روح الترحال هذه في نفوسهم الميل إلى الاستقلال وتعشق الحرية والكبرياء، واحتقار المهن التي تستلزم الركود والإقامة الطويلة، وأخصها الزراعة.



معسكر القرغيز

الأخلاق: وفي أخلاقهم ميل إلى المحافظة على القديم بسبب عزلهم عن العالم الخارجي وخضوعهم لرئيسهم الشيخ Patriarch لأن الشيوخ بطبيعة الحال ميالون إلى المحافظة على التقاليد والرغبة عن التغيير والتعديل. ولا أدل على تأصل روح المحافظة على القديم Conservatism في نفوس الرعاة من أن البلغار وهم من الجنس الأصفر الذي استوطن أوروبا لايزالون محافظين على عاداتهم القديمة منذ أن كانوا رعاة، كأكل اللحم وتزين النساء بكل حليهن وتفضيل (موسيقى القرب) على غيرها.

كما أن الأتراك وهم كذلك من الجنس الأصفر يحبون العزلة. ويخضعون للطاعنين في السن ولا يختلطون بجيرانهم بل يفصلون بين منازلهم بحوائط وحدائق ويحتقرون الزراعة والصناعة. ولعلهم الآن يتخلصون من أسر هذه العادات.

وساكن المراعي محارب عظيم وجندي شجاع لأن النزاع على الكلأ وضرورة الهجرة أحيانا مع قطيع كثير العدد تستلزم نظاما حربيًا دقيقًا. ولذا كانت الأمة كلها جيشًا منظرًا، وكان الجيش أمة متحركة. كما أن التدرب على ركوب الخيل وتحمل الصعاب وخشونة العيش جعلت كل فرد رجلًا شديد المراس. وأكبر ما يتميزون به في غزوهم حرب الكر والفر **Sudden Attack and Swifter Retreat** ومن أخلاقهم الفخر بالأنساب واليقظة وقوة الملاحظة. وبينما تراهم يفاخرون بالسطو على غيرهم من القبائل المجاورة، تجدهم يعاقبون من يسرق زميله ومواطنه عقابا صارما، كما أنهم يتميزون بالشمم والإباء وحب الانتقام والأخذ بالثأر **Blood Revenge**.

العقلية: والحياة في بيئة المراعي تسير على وتيرة واحدة وليس للفرد من المشكلات الاجتماعية ما يستلزم التفكير العميق أو دقة التحليل، وهو خاضع الطبيعة الخضوع كله، وليس في مقدوره إنبات الكلأ أو درء وباء من الأوبئة، ولذا كان تفكيره سطحية وكان ميالا إلى الاعتقاد بالقضاء والقدر **Fatalist**.

ويعتقد أن حياته وحياة قبيلته تسيرها قوة عظيمة مستترة، وإذا أضيف إلى هذا الاعتقاد سعة خياله الذي تغذية الطبيعة الممثلة في السهول الفسيحة وكثرة أوقات فراغه أمكننا أن نعل السبب الذي من أجله أصبح ساكن المراعي كثير التأمل يسعى إلى تفسير مظاهر الكون وبذلك أصبح مهيئ لقبول الديانات التي تنادي بالتوحيد.

وقد نزل سيدنا عيسى وسيدنا محمد في بيئة المراعي والصحاري حيث أفكار القوم مهيئة لقبول الرسالة والاعتقاد بالله وهو القوة العظيمة المسيطرة على مظاهر الخلق والطبيعة.

الرابطة العائلية: والرابطة العائلية بين الرعاة وثيقة، لأن العائلة كلما كانت شديدة الارتباط كثيرة العدد، عظمت مكانها وخشي بأسها وازدهرت مصالحها، وينتخب رئيس القبيلة عادة من العائلة الأكثر عددًا والأعظم قوة، ويخضع أفراد القبيلة لرئيسها خضوعا مطلقا وخصوصا في أوقات الحرب، وذلك لكبر سنه وكثيرة تجار به، وقدرته على معرفة الطقس والتغيرات الجوية، ولذا فهو مطلق التصرف في شئون القبيلة، وهو الحكم والمشرع والمنفذ وتسمى هذه الجماعات **Patriarchal Societies** نسبة إلى الأب الأكبر.

أثر الرعي: من هذا العرض لحياة الإنسان في مراعي آسيا الشاسعة يمكن أن نخلص إلى آثار البيئة في حياة الرعاة ممثلة في الحقائق الآتية:

أولًا– أن بيئة المراعي تشجع على التقدم لما فيها من تغير الفصول الذي يستلزم الكثير من التحمل والشجاعة والقدرة على التشكل وهم في هذا يخالفون سكان الغابات الاستوائية أو التندرا حيث لا يكاد يشعر الإنسان بتبدل في المناخ.

ثانيًا– أن سهوب آسيا شاسعة مترامية الأطراف ليس لها ما يحميها من الحواجز الطبيعية، كالصحراء بالنسبة لمصر، أو البحر بالنسبة لليونان، ولذلك اضطر القوم أن يحموا أنفسهم باجتماعهم واتحادهم. وإذا أضيف إلى ذلك قسوة الظواهر المناخية التي تجعل حياة الفرد في خطر إذا استقل بنفسه وابتعد عن غيره، عرفنا السبب في أن سكان المراعي أمكنهم الارتباط والاتحاد فكونوا القبائل القوية. وهم في ذلك يخالفون الجماعين الذين ظلوا طوال العصور متفرقين مبعثرين في جماعات ضعيفة.

ثالثًا- بما أن الأرض والمناخ لا يلائمان إلا الحشائش كان من الطبيعي ألا يكتفي الرعاة بأكل الحشائش، ولذا أصبحوا رعاة يعيشون على أكل اللحم واللبن والزبد.

رابعًا– لما كانت الحشائش عرضة للزوال بسبب ندرة الأمطار أو هبوب العواصف الرملية كان من الضروري أن ينتقل القوم من بقاع إلى بقاع ولذا تأصلت في نفوسهم روح الترحال.

خامسًا– لما كانت قبائل الرعاة غير محمية طبيعيا وكانت معرضة لغزوات غيرها من القبائل اضطروا إلى استعمال القسوة في الدفاع عن أنفسهم أو في غزو غيرهم بحيث كان القتل والفناء عقيدتهم وإلا كانوا هم أنفسهم طعمة الغزاة والفاتحين.

ولقد نتج عن فترات الجفاف التي كانت تحمل بسكان مهوب آسيا، أن اضطر هؤلاء إلى الهجرة في جماعات عظيمة العدد إلى الجنوب والشرق والغرب والشمال، فاحتلوا الهند والصين وسيبريا وأوروبا، وطالما حدثنا التاريخ عما كان يقاسيه الإغريق والآشوريون في العصور القديمة من هذه الغزوات. ولا يغيب عن ذاكرتنا ما أتاه «اثيلا» رئيس قبائل الهون «Huns» في وسط أوروبا في القرن الخامس من الفظائع حتى سمي «The Scourge of God» (سوط الله).

وفي القرن الثالث عشر كان يحكم سهوب آسيا القائد الأكبر «جنكيز خان» ولقد حك خلفاؤه من بعده ثلاثة قرون بعثوا في خلالها جيوشهم للنهب والسلب شرقا وغربا، ففي القرن الثالث عشر غزا قائد من قواد جانكيز خان لروسيا وبولندا وهنغاريا ثم تعرضت بلاد النهرين للغزو في عهد كوبلاى خان. وفي القرن السادس عشر غزيت الهندو ظهرت فيها مملكة المغول. وما الحروب الصليبية في القرن الحادي عشر وسقوط القسطنطينية سنة ١٤٥٣ إلا حدثان من أحداث تلك الغزوات التاريخية لقبائل الرعاة.

من هذا نتبين عظم الأثر الذي تركته غزوات رعاة آسيا على صحيفة العالم، غير أننا نحار في مبلغ فائدة هذه الغزوات أو ضررها، ولا جدال في أن تلك الغزوات كانت مدمرة نسفت أمامها كل شيء، غير أنه لا ينكر أيضًا أن على أنقاض تلك الأمم القديمة، أمام البحر الأبيض المتوسط، قامت أمم أخرى قوية فنية تنتسب إلى الرعاة تقلت المدنية الأولى وحافظت عليها ونهضت بها إلى الأوج، فقد كان سكان البحر الأبيض من مصريين وبابليين وإغريق ورومان يعيشون في ظروف سهلة لم تبعث فيهم روح المجازفة التي امتاز بها سكان المراعي ولذا فأنه عندما انتقلت المدنية إلى هؤلاء، انتقلت إلى قوم أمكنهم نشرها في مشارق الأرض ومغاربها.

كذلك فتحت غزوات الرعاة أعين سكان الغرب إلى عوالم أخري كانت بعيدة عن دائرة تفكيرهم، وعلموا أن هناك بلدانا أخرى غير إقليم البحر الأبيض تحوي الكثير من الأسرار وبها مجال للغني والشهرة. وبذلك بدأت رحلاتهم شرقا وغربا، وكانوا يعودون منها يقصون أنباء مخاطراتهم ومجازفاتهم – مما شجع غيرهم على التجوال والترحال، وقد انبعثت هذه الروح وطفت على العالم فأدت إلى الكشف الجغرافي العظيم في القرن السادس عشر.

الفصل الثاني

رعاة الإبل في صحراء العرب

موقع الصحراء: ترحل الآن إلى ناحية أخرى من المعمورة، يعيش فيها الإنسان عيشة مشتتة، يتنقل بقطعانه من الإبل والماعز بين منابت الكلأ والواحات، في ظروف مناخية أشد وأقسى من ظروف رعاة آسيا الذين عرضوا لنا قبل الآن. تلك هي الصحراوات الحارة الواقعة بين خطي عرض ٢٠° و٣٠° شمال خط الاستواء وجنوبه. تلك الصحراوات التي كان لأحداها نصيب هام في تغيير مجرى التاريخ، حيث كانت مهبط ديانة من الديانات العظمى التي تنادي بالتوحيد، حملها أهلها في صدورهم ونشروها في مشارق الأرض ومغاربها، في همة كان من دواعي العجب أن تصدر عن قوم رحل من البدو.

وصف الصحراء: بحر من الرمال اللانهائية تكتنفه كثبان رملية ترتفع وتنخفض كأمواج المحيط. متسع عظيم يسوده سكون عميق، لا يسمع السائر فيه إلا صوت نفسه وأجراس الدواب التي تحمله. ولا يكاد يرى إلا اللونين الأصفر والأشهب – فالرمال والدابة والخيمة والمتاع كلها صفراء اللون، ولا يشذ عن ذلك إلا زرقة السماء ولون الشهم وقت الشروق أو الأصيل، خين تكتسب لونًا داميًا ساحرًا. ولقد. يسير الإنسان الأيام الطوال وهو لا يسمع مونا، حتى ليخشى أن يرفع صوته وقد تملكه

سحر الصحراء، وهي تجتذبه إلى أعماقها بين سعير النهار وزمهرير الليل، والموت يرقبه من بعيد إذا هو ضل عيون الماء التي يتبعها دليله. فاذا ما اقترب من إحدى الواحات الكثيرة التي تتناثر في الصحراء، تغيرت معالم الحياة وخيل إليه أنه قارب الجنة، إذا رأى عن بعد أغصان النخيل الخضراء والبيوت الصغيرة التي تحيط بها المزارع الجميلة.

نبات الصحراء: وقد زودت الطبيعة نبات الصحراء وحيوانها بوسائل نبات شتى تقاوم بها العطش. فمن النبات ما له جذور طويلة تصل السحر إلى الماء الباطني كأشجار النخيل، ومنها ما له أوراق شوكية تمنع تبخر الماء.

حيوان الصحراء: أما حيوان الصحراء فهو الجل الذي لا تغوص حيوان أرجله في الرمال، ويمتاز بصبره على العطش والجوع أياما متوالية لذا يعتبر كالحصان عند رعاة آسيا، وبه تقاس ثروة الأفراد. وهو أداة المبادلة في الأسواق، كما أنه مصدر غذائهم إذ يشربون لبنه طازجًا كما يخزنونه لمدد طويلة على حالته السائلة، لأنه لا يصلح كثيرا لعمل الزبد والجين. ووبر الجمل مادة ملبسهم وحبالهم.

كما يصنعون من جلده آنية الشرب. ولذا نرى أن الجمل عند أعراب البادية والحصان عند رعاة السهوب وعجول البحر عند الأسكيمو في المقام الأول من الأهمية.

أعمال السكان: وسكان الصحاري إما رحل Nomads يتنقلون بجمالهم من مكان إلى آخر طلبا للرعي. وإما زراع يقيمون في الواحات Settlers يرعون القطعان ويزرعون البلح. ويستلم فقرهم المدقع وعدم استقرارهم وتدهورهم من الناحية الصناعية اشتغالهم بالتجارة مع الزراع القاطنين على حدود الصحراء. فأعراب بادية العرب يشترون الدقيق والشعير والبن والملابس من أسواق دمشق، ويدفعون في مقابل ذلك البلح والجلود. كذلك يعمل سكان الصحراء كوسطاء بين السكان القاطنين على حدودهم، والذين يختلفون في نوع الانتاج. ولقد قامت تجارة القوافل من قديم الزمان بين العراق ومصر وسوريا على أكتاف بدو صحراء العرب، كما أن الأعراب والمراكشيين يقومون بتجارة القوافل بين بلاد أطلس وساحل غينا. وقد أدت تلك التجارة إلى قيام مدن نشأت شهرتها من وقوعها على أطراف الصحراء كمدينة "تمبكتو" على نهر النيجر بأفريقيا، تلك التي يؤمها سنويا ما يقرب من ستين ألف جمل. وكذلك بغداد والبصرة في العراق، وأمثال هذه المدن تتجر في حاجيات الصحراء وما يلزم المسافرين.

وتختلف التجارة باختلاف الانتاج. فالسيوف القاطعة في دمشق ترينا مبلغ حاجة الأعرابي إلى السلاح، كما أن تجارة الملح في تمبكتو ترينا حاجة السكان إليه في تلك المنطقة. ولا ننسى إذا ذكرنا سكان الخيام وأعمالهم أنهم أقدم من صنع السجاد الجميل من صوف الحيوان وقد تقدمت هذه الصناعة وتوطدت بانتقالها إلى سكان الأراضي الزراعية المجاورة حتى اشتهرت بها بلدان كثيرة أمثال شيراز وبخاري.

الغذاء: والغذاء العادي لسكان البادية هولين الجمال والماعز، والخبز المصنوع من القمح أو الشعير، وكذلك الأذرة والبلح وتشترى هذه الحبوب من أسواق القرى القريبة أو من تجار القوافل وتحفظ في أكياس تنسجها النساء من وبر الجمال. ولا يأكلون اللحم إلا نادرًا. وإذا نزل بهم ضيف فأنهم يذبحون الجمل أو الغزال إذا أمكن صيده، وتوزع أجزاء منه على الأهل والأصدقاء. وأكلتهم الرئيسية في المساء حين يصنعون الخبز، وتشترك النساء في الأكل مع الرجال إلا إذا كان لديهم ضيف غريب عن القبيلة. ولقلة أكلهم هذه أثرها في نحول أجسامهم. والواقع أن المثل الأعلى للرجل عند العرب هو ذلك النحيل الضامر طويل القامة سريع الحركات.

وقد أدت قلة موارد الرزق عند كثير من قبائل العرب إلى الرغبة عن الإكثار من النسل أو التزوج بأكثر من واحدة وفي تاريخهم ما يدل على شيوع عادة وأد البنات بينهم **Female infanticide**. وقد حرم القرآن الكريم هذه العادة في قوله تعالى: "ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق نحن نرزقهم وإياكم".

الملابس: ويشترى سكان الصحاري الآن ملابسهم وأسلحتهم من الملابس أسواق القرى المنشورة على حدود الصحراء، أو من تجار القوافل كما أنهم ينزلون صوف الجمال وينسجونه على أنوال يدوية بسيطة المساكن وقت فراغهم الطويل.

المساكن: ويصنعون خيامهم من جلد الماعز ووبر الجمال. غير أن سكان الواحات يتخذون منازل من الحجر اتقاء الحرارة.

الحياة الاجتماعية: والوحدة الاجتماعية عند أعراب بادية العرب هي الأسرة وتمتد من الجلد الثالث إلى الحميد الثالث الذكور فقط، ويعيش هؤلاء في بقعة واحدة يرأسهم شيخ القبيلة الذي يمتد نفوذه على كل أفراد القبيلة، كما قد يمتد سلطانه إلى أفراد غرباء عنه طلبوا حمايته من جور الأعداء. ويرث الأب أولاده الذكور وهم النصيب الأكبر. وقد ينفصل أحد رجال القبيلة مع بعض الأفراد ويكونون قبيلة أخري. لدواع أهمها قلة العشب أو الحزازات الشخصية بين أعضاء القبيلة وشيخها.

وقلما يتزوج أعراب البادية أكثر من زوجة واحدة، إلا إذا كانوا من أغنياء القوم، وفي هذه الحالة يفر دون خيمة خاصة الكل زوجة وفي كثير من الأحيان تعيش الأم مع أولادها تاركة زوجها مع زوجته الجديدة. ومن عاداتهم تفضيل ابن العم كزوج للبنت، وإذا رفضت هذه أو أبي ذووها، استأذنوا ابن عمها عند زواجها بآخر.

العبيد: ويملك كثير من شيوخ القبائل عبيدة يقومون بخدمة القطيع ويضربون الخيام و يوفرون لسيدهم أسباب الراحة، غير أنهم في القبيلة يكونون وحدة خاصة، ولا يسمح لهم بمصاهرة العرب وإذا حدث ذلك كان عقابه الموت.

قبيلة الرولة Ruaal: وإذا درسنا حالة قبيلة الرولة Ruala في صحراء العرب من شمال غرب «منخفض سرحان» إلى «النفود» وجدنا تأثير البيئة ممثلا أحسن تمثيل. فهم قوم ذوو بنية قوية، سمر الوجوه أجسامهم ضامرة صلبة كالأرض التي يتنقلون عليها. ويعيشون في بساطة تامة كبساطة الصحراء. وقد أدى صراعهم على الحياة إلى تفتق حواسهم، فهم على جانب عظيم من صفاء الذهن وقوة الملاحظة والمهارة والمكر وسعة الحيلة، ولا يحسبون حسابا لبعد الشقة إذ لا معنى للتعب عندهم. وهم يجوبون الصحراء في سرعة مدهشة يوقعون الرعب في قلوب القوافل والقبائل المجاورة.

خلق الصحراء: ويشبه سكان الصحاري رعاة آسيا الذين تقدم ذكرهم في أنهم ولدوا للحرية يتعشقونها ويفخرون بها، ولا يقبلون الضيم

الكرم: وهم يكرمون الضيف لاعتقادهم أن الضيف إذا لم يجد مأوى وطعاما؛ مات من قسوة الصحراء، كما أنه يحدث شيئا من التنوع في حياة البدوي المملة، وينقل إليه أخبار القبائل الأخرى، وهو إلى جانب ذلك يروى، بعد عودته إلى قبيلته، مبلغ ما وجد من نفوذ مضيفه.

الحروب والمنازعات: أما غارات قبائل العرب فالتاريخ مليء بها، يحدثنا عنها بإسهاب. وما حرب البسوس التي وصفها مهلهل التغلبي في قصائده الخالدة، إلا واحدة من حروب كثيرة، كان ينقسم فيها العرب على أنفسهم سنوات طويلة، يسود فيها القتال وتخرب الدور ويهلك

القوم. وقد يكون مصدر هذه الحروب النزاع على أراضي الكلأ، وهذا يحتمه تنازع البقاء. كما قد تكون نتيجة عمل طائش من أعمال الشبان المولعين بالمخاطر والشهرة. وغزواتهم هذه إما شاملة لكل رجال القبيلة، وبذا تتخذ مظهر الحروب ويكون من ورائها قهر قبيلة بأكملها وإخضاعها، أو جزئية تتخذ شكل مناوشات بين عصابات من القبائل غرضها السطو وسرقة الأبل أو الخيل التي تعتبر أنفس ما يمتلك رجال القبيلة.

الثأر: والأعراب لا ينسون إساءة مطلقا وإذا قتل من بينهم قتيل اعتبروا ذلك إقلالا من عدد المحاربين منهم ويستلزم وذلك قتل فرد من القبيلة المعتدية، وقد يقبلون الفدية **Blood Price** إذا كانوا ضعافًا، وهي عبارة عن عدد من الجمال يتراوح قلة وكثرة حسب منزلة القتيل. وكثيرا ما تسبب هذه الحزازات «**Blood Feuds**» حروبا كبيرة تقضى على المئات من القوم. وقد عرض القرآن الكريم هذه الناحية من خلق العرب، لكنه حض على العفو وعدم الاسراف في القتل.

ومن أخلاقهم احترام الكبار، والطاعنين في السن، والصبر على المكاره، وتحمل المشاق، وذلك ناتج من طول تعرضهم القسوة الطبيعة.

سعة الخيال: وليس لساكن الصحراء من المعضلات ما يستلزم دقة البحث المنطقي ولذا كانت قوة تفكيره ضعيفة. والعرب في تجوالهم من واحة إلى واحة فوق صحراء شاسعة يرتد عنها البصر حيث لا يوجد

ما يجذب النظر، قد تركوا لخيالهم وتأملهم العنان، فشعروا بضعفهم وقلة حيلتهم أمام الصحراء العظيمة التي لا يسعهم إلا الخضوع لها والاستكانة لأمرها والتفكير فهاو راءها من قوة خالقة تسير الأمور. وقد هاد اهم هذا التفكير إلى وجود قوة خفية تشكل حياتهم وتسيرهم على نحو خاص لا قدرة لهم على تحويره. ولذا اعتقدوا بالقضاء والقدر **Fatalism**.

التوحيد: وكان لوحدة المظهر المثل في الصحراء أثر في اعتقادهم بوحدانية الله، ولذا فلا عجب أن كانت صحراء العرب مهبطًا للدين الاسلامي كما كانت أطرافها مهبطا لليهودية والمسيحية وكل هذه الديانات قائمة على التوحيد.

الحماس الديني: وقد كان لرسوخ التعاليم الاسلامية في نفوس العرب الذين هيأتهم الطبيعة لذلك من قبل، واعتقادهم بضرورة عمل الخير لأنه خير، والابتعاد عن الشر لأنه شر، الاثر الأعظم في حملاتهم الدينية على الأمم المجاورة بقصد نشر دينهم. و إنك لتلتمس تلك الحماسة الدينية والعقيدة المؤمنة فلا تجد لها أثرا بين قبائل الهمج الوثنيين، أولئك الذين لا يعدو احترامهم لآلهتهم الموهومة أو تقديمهم القرابين لتماثيلها، أن يكون خوفا منها لاحبا خالصا لها بعكس العرب الذين رسخ حب الله في نفوسهم لدرجة أوجدت بينهم طوائف من المتصوفة الذين يتفانون في حب الله كابن الفارض وأتباعه، ولهذا فلا عجب إذا انتشر الدين الاسلامي على أكتاف سكان البادية إلى مشارق الأرض ومغاربها حتى إذا وصلت الفتوح الاسلامية إلى نهايتها ظل الدين

الاسلامي ينتشر ويتغلغل حتى بين أقوام أصبحوا سادة العرب فيما بعد كالأتراك العثمانيين.

تلك أنباء الصحراء تطالعك فيها الرمال المجدية والشمس المحرقة، والسماء الصافية والأرض القاسية. وأثر كل أولئك على رجل الصحراء في نفسه وعقله، وخلقه وعمله. وإنه ليدهشك حقًا في «كتاب الصحراء» تلك الرسالة الفذة التي تلقاها رجل البوادي فأحسن لقاءها، ثم حملها وراح يبشر بها أقواما (الفرس والروم) كان لهم من وفرة العدد، وقوة العدة، ووسائل الحياة وأبهة الملك، ما تضاءل أمام إيمانه الوثيق وحبه العميق لله.

تلك الرسالة هي الاسلام الذي ولد بمكة، ثم طوف بالأرجاء وله الآن في أنحاء العالم قدر معلوم. وهذا تاريخ البدو ينافس تاريخ الرعاة، وقد كانت آسيا موطنا لكليهما، وقد كان لكليهما نصيب عظيم فما طرأ على العالم من تغيير وتبديل.

الفصل الثالث

رعاة الرنة في سيبيريا

عرضنا للقارئ الآن صورتين لحياة الرعاة في بقعتين مختلفتين من بقاع العالم إحداهما تظهر فيها أهمية الحصان والثانية يبدو فيها أثر الجمل في حياة الناس ولنعرض الآن البيئة أخرى من الرعاة في جهة نائية من العالم تعتمد على غزال الرنة كالحيوان الرئيسي في القطيع. أولئك هم قبائل التنجس والساموييد والكورياك.

التنجس The Tungus

الموقع: تعيش تلك القبائل في جماعات صغيرة، متفرقة في شرق سيبريا من نهر ينسى **Yenesei** إلى شبه جزيرة كمتشكا، على رعي حيوان الرنة. وأكثر البقاع تميزا في رعي هذا الحيوان هي منطقة بيكاليا **Baikalia** على جوانب جبال يابلونوي، وكنجهان **Kinghan** الشمالية شمال خط عرضه ٥٥°، وهي بقاع ذات صيف قصير الأمد، من منتصف يونية إلى آخر أغسطس.

المناخ: أما هضابها المناخ ومرتفعاتها فيقتصر صيفها على شهر يوليه فقط، وخلال هذا الصيف القصير تتحول الأرض إلى مستنقعات شاسعة. أما في الشتاء الطويل فتتجمد المياه ويغطى الجليد الأرض وتنخفض درجة الحرارة إلى ٨٠°ف تحت درجة التجمد.

تنقلهم: وتنتقل قبائل التنجس الشمالية إلى التندرا في فصل الصيف تنقلهم حيث يكثر العشب الذي ترعاه قطعان الزنة، ويحاول القوم جهدهم تغذية قطعانهم في هذا الفصل، حتى يمكنها مقاومة الجدب في فصل الشتاء الطويل، حين يقل العشب، ويضطر الحيوان في كثير من الأحيان إلى تفتيت الجليد بحوافره حتى يصل إلى الطحالب القصيرة. وفي هذا الفصل لا يصبر القوم على البقاء بقطعانهم في بقعة واحدة، بل ي كثر تنقلهم وراء الطحالب والعشب، ولذا كان من المحتم عليهم أن يمتلكوا بقاعا واسعة لا تقل مساحتها عن أربعة أميال مربعة لكل رأس من القطيع.

أهمية حيوان الرنة: وتعتمد بعض هذه القبائل اعتمادا كليا على ما ينتجه القطيع إذا كان عدده كبيرا، وفي هذه الحالة يقوم الرجال برعيه وملاحظته أما إذا كان عدد القطيع صغيرا اشتغل الرجال بالصيد لتوفير غذائهم، وتركوا الاشراف على القطيع للنساء. ويعيش القوم على ألبان هذا الحيوان إذ لا يذبحونه إلا في مناسبات خاصة كالأعياد، أو إذا تعذر الصيد. ولبن الرنة حلو كثيف غير أنه لا يصلح كثيرا لعمل الزبد. ويستعمل الحيوان لحمل الأثقال أو لجر الزحافات وهو أصلح من الحصان وأثبت قدما في الجهات الصخرية والمستنقعات. وفي استطاعته حمل ما يربي على ١٥٠ رطلا من الأثقال، كما يمكنه قطع مسافات طويلة لا تقل عن ٥٠ ميلًا في اليوم الواحد.

ولا تختلف زحافات التنجس التي تجرها الرنة عن زحافات قبائل اليوكاغير التي تجرها الكلاب، كما قدمنا غير أنها أكبر حجما، وهي لا تستعمل إلا في التندرا حيث يمكن انزلاقها لا على الجليد أو الأعشاب اللينة. أحد الرعاة يركب الرنة واستعمال الزحافات شائع بين قبائل هذه الجهات حتى اللابلانديين (Lapps)، في شمال فنلندا، الذين لا يركبون الرنة. أما في الغابات الجنوبية فلا تستعمل الزحافات بل يقتصر القوم على ركوب الحيوان.

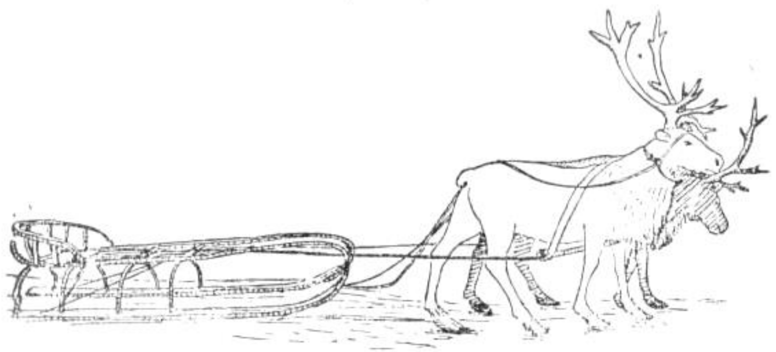


أحد الرعاة يركب الرنة

وتتعرض قطعان الرنة في كثير من الأحيان لأوبئة تفتك بها فتكًا ذريعًا. كما تهاجمها الذئاب الجائعة، في الشتاء، فتنقضي على الكثير منها. ولذا يقتني الكثير من هذه القبائل كلابا لحراسة قطعانهم.

ولا تقتصر حياة هذه القبائل على رعى غزلان الرنة، بن يشتغل الكثير منهم بصيد الأسماك والوعول والغزلان والدب وتستعمل إناث الرنة المستأنسة لأغراء الغزلان الشاردة المتوحشة على الاقتراب من مكمن الصيادين حيث يرشقونها بسهامهم.

وكثيرا ما يبادل رجال هذه القبائل فراء الحيوان بالا نية والشاي والتبغ والأسلحة، مع التجار الروسيين الذين يجوبون بقاع سيبريا لهذا الغرض.



زحافة يجرها غزال الرنة

المسكن: ويسكن التنجس الرعاة في خيام مخروطية من جلد الرنة في فصل الشتاء، وذلك لاضطرارهم إلى كثرة التنقل سعيا وراء العشب وطلبا للصيد. أما في الصيف عندما ينتقلون إلى حدود التندرا حيث العشب الوفير، فانهم يبنون قرى دائمة ذات أخصاص من أخشاب الأشجار يزورونها سنويا.

الحياة الاجتماعية: ويعيش التنجس في قبائل تتكون كل في الغالب من عشائر تربطها صلة الأب، يتزاوجون فيما بينهم، ولا يتزوجون من القبائل الأخرى، وكثيرا ما تنقسم القبيلة بهجرة بعض أفرادها، أو تضم أفرادا من قبائل أخرى عاجلتها عوامل الفناء. وتعيش عشائر القبيلة الواحدة في سلام، ولكل بقاعها الخاصة بالرعي والصيد، وقاما يحدث بينهم من النزاع ما يؤدي إلى انفصال عشيرة عن قبيلتها، وتقضي هذه العشائر معظم السنة متنقلة من بقعة إلى أخرى للرعي والصيد في جماعات قليلة العدد ولكنها تجتمع في صعيد واحد في الصيف عندما يكثر العشب في حدود التندرا وعندئذ يجتمع رؤساء العشائر ويكونون مجلسا لبحث الشئون المختلفة وتسوية النزاع بين الأفراد، ولذا فليس هناك رئيس يتوارث أبناؤه حك العشيرة بل السلطة إجماعية في يد رؤساء الأسر.

وبالرغم من أن كل أسرة تمتلك عددا خاصا من غزال الرنة، قد يحدث كثيرا أن يعاد توزيع القطيع على الأسر المختلفة، إذا ما انتشر وباء قلل من عدد القطيع، ولا يقبل أحد من أفراد هذه العشائر أن يرعي قطعان غيره كأجير أو كخادم، لأن الثروة موزعة بينهم توزيعًا عادلًا.

الزواج: وعند زواجهم يقدم أهل الرجل لوالد الفتاة هدية من حيوان الرنة يسمونها **Turi** وهي شبيهة بالمهر **Bride-Price** عند رعاة آسيا و بلاد العرب وقد يشترك في هذه الهدية بعض رجال العشيرة من أقارب الرجل، ويتفاوت هذا المهر حسب جمال العروس و مهارتها

ومركزها الاجتماعي، غير أن نصف هذا المهر يرد لأهل الزوج كهدية العروس مع بعض الأواني والجلود، ويبقى المهر ملكا للعروس يرثه بناتها من بعدها، وكثيرا ما تتبادل الأسر البنات وعندئذ لا يدفع مهر إلى أحد الطرفين، واذا عجز الرجل عن تقديم مهر لعروسه لفقره عاش مع أسرتها مدة من الزمن يصيد معها معوضا بذلك عن المهر.

وقد يضطر الرجال إلى التغيب فترات طويلة وراء الصيد وعندئذ يقوم النساء برعي قطعان الرنة والسهر على مصلحة الاسر ويعاونهن في ذلك الطاعنون في السن من الرجال فيشتركون معهن في حياكة الملابس وحلب القطعان.

ويقسم ما يصيده الرجال من حيوان وأسماك، وما يجلبه النساء من لبن، بين أفراد الجماعة، وهذا يدل على ما بينهم من شدة ارتباط يحول في أغلب الأحيان دون تدهور الأفراد أو فقرهم.

الأسر: وتستلزم هذه الحالة الاقتصادية بين التنجس وجود وحدة عائلية من رجل وامرأة على الاقل، وقد يعيش مع الرجل أبواه وأولاده المتزوجون وبذا تضم العائلة ثلاثة أجيال، وقلما يتزوج الرجل من أكثر من واحدة إلا إذا كانت زوجه عاقرًا.

وإذا مات رئيس الأسرة أو عجز عن العمل ورثة ابنه الأكبر فأصبح مسئولا عن شئون الأسرة ومثلها في مجلس العشائر، وإذا ماتت الزوجة ورثتها الزوجة الثانية التي تكون في غالب الأحيان أختها.

من هذه الصورة المبسطة لحياة هذه القبائل تري أن اشتغالها بالرعي والصيد قد حتم عليها تكوين وحدات عائلية دائمة قوية ممثلة في القبيلة. كما أن الأسر على صغرها وتناثرها تسود بينها روح التعاون التي تحول دون فقرها وتدهورها. كما أن التزاوج بين العشائر المختلفة واتحادها في الصيد والرعي قد ساعد على تقوية الرابطة الاجتماعية بينهم، وهذا حتما يؤدي إلى ازدياد قوة الوحدة الكبرى وهي القبيلة.

عرض عام "للرعاة"

عزلة الرعاة وأثرها في مهنتهم: قدمنا أن الرعاة يقطنون بيئات تكاد تكون منعزلة عن العالم الخارجي خصوصا قبل انتشار طرق المواصلات الحديثة وأنهم نتهم يعيشون في جماعات تستطيع الاعتماد على نفسها من الوجهة الاقتصادية **Self-sufficing Communities**، وقد نتج عن هذه العزلة وعن طول ممارستهم للرعي دون غيره من المهن صعوبة تحويلهم إلى زراع يهتمون بالأرض مباشرة، وقد تجلت هذه الظاهرة في غزوات الأتراك العثمانيين لبعض البلدان كمصر، حيث كان الوالي يعيش بعيدا عن الشعب ويعين من قبله ملتزمين الجباية الضرائب التي يفرضها، دون أن يهتم هو بالشئون الزراعية ولذا لم تكن غزواتهم عميقة الأثر كغزوات غيرهم من الزراع.

غير أن الرعاة في صعوبة انتقالهم إلى مهنة الزراعة، لا يختلفون كثيرا عن قبائل الصيادين إذا أريد تحويلهم إلى رعاة. والأمثلة كثيرة على ذلك: فقد أدخل غزال الرقة المستأنس في قبائل الأسكيمو في ألاسكا، وحاول كثير من الرعاة الأسيويين واللابلاندين تدريب الاسكيمو على

رعيه فلم يفلحوا إلا بعد مدة طويلة، إذ كان الاسكيمو يقتلون الحيوان دون تردد، كعادتهم في صيد حيوان الكاريبو. كذلك نجد في جنوب غرب أفريقيا قبيلة من قبائل البشمن **Bushmen** الصيادين، اشتغل أفرادها طويلا في رعي ماشية إحدى قبائل الرعاة وتسمى **Herero**، وبرغم ذلك لم يقتنوا الحيوان لمصلحتهم ولم يحاولوا رعيه وإذا اقتدر أحدهم على اقتناء الحيوان ترفع عن حلبه والانتفاع بلبنه.

ومهنة الرعي أقل تركيزًا للإنسان من الزراعة، فهي تستلزم الترحال الدائم أو المؤقت كما قدمنا. وفي بعض الأحيان إذا اختلط الرعاة بالقرى الزراعية الواقعة على حدودهم، ووجدوا من الاطمئنان وسهولة العيش ما يشجعهم على الاقامة مارسوا الزراعة بالتدريج، وتحولوا إلى قبائل مقيمة متوطنة، ومن أمثلة ذلك بعض قبائل الرعاة المقيمين في سهوب شمال سوريا، فأنهم في الوقت الحاضر يتحولون بالتدريج إلى زراع، وبالرغم من أنهم يسكنون في خيام من شعر الماعز إلا أنهم يزرعون الذرة ويتركون قطعانهم لمأجورين من الرعاة، ولطول إقامتهم في بقعة واحدة يبنون بالتدريج أكواخا من اللبن ثم يتركون هذه إلى منازل مسطحة السقف و بذلك يصبحون زراعا ورعاة في الوقت نفسه.

وكثير من سكان إقليم التل بمراكش يعيشون في خيام ويقتنون قطعانا، غير أنهم ليسوا رعاة بالمعنى الصحيح، فهم يزرعون الأرض على مدار السنة وقلما يتنقلون بقطعانهم، وهذا شأن كثير من قبائل البربر في الصحراء الكبرى، أولئك الذين يتركون الرعي ويزرعون الأرض في الواحات الكثيرة المتناثرة في الصحراء.

غير أن هذا كله لا ينفي أن الكثير من قبائل الرعاة في آسيا يعتمدون كلية على الرعي دون الزراعة، إما لأن ظروف التربية والمناخ لا تساعد على ذلك أو لأن حالتهم السياسية لا تشجع على الاستقرار المباشرة الزراعة. كما أن الكثير من الرعاة يحتقرون الزراع كالكازاك من رعاة آسيا والمساى من رعاة أفريقية.

وكثيرًا ما يشتغل الرعاة بصيد الحيوان إلى جانب رعيه، ويتخذ هذا الصيد صبغة رياضية كما هي الحال بين قبائل الكازاك **Kazak** وأعراب بادية العرب، إذ يصيدون للتسلية وإظهار القوة والمهارة، ولكنك تجد بعض قبائل الرعاة في أفريقيا كالطوارق **Tewarik** والفولا **Fula** والبانتو **Bantu** يصيدون الغزلان والز راف لأكلها، ويعتبرون قطعانهم مظهرا للثروة والام فقيل، كما يعتمدون عليها في الحصول على اللبن.

تنقل الرعاة: وثم ظاهرة أخرى في حياة الرعاة علينا أن نحللها في شيء من الحرص، تلك هي حبهم للترحال بطبيعتهم **Nomadism**، فإذا قلنا إن الرعاة كثيرو التنقل فلا نقصد بهذا أنهم لا وطن اللهم، فالمشاهد أن لكل قبيلة أو عشيرة أمكنة خاصة يرعون فيها قطعانهم ولا يعتدون على أملاك غيره دون إثارة منازعات طويلة لها خطرها، فقبائل ال **Kazkak** مثلا لها مساكن شتوية دائمة تعتبر من أملاك القبيلة. كما أن تنقلهم هذا يتوقف على قوتهم وتوفر دواب الحمل عندهم كالحصان. فبينما يتنقل رعاة وسط آسيا مئات الأميال سنويا لتوفر الحصان السريع عندهم تجد قبائل **Kalmuck** في جبال الطاي

لا يتركون مراعيهم الغنية إلا إذا طال هجوم الحيوانات الضارية عليهم.

غير أن الرعاة إذا تعاقبت عليهم سنوات من الجفاف هددت حياتهم بالجوع فلا مناص من هجرتهم إذ ذاك إلى بقاع أصلح للحياة. والتاريخ يحدثنا كثيرا عن غزوات قبائل الرعاة من آسيا إلى أوروبا، كما أن سور الصين العظيم الذي بناه الامبراطور شى هوانج تي في سنه ٢٢٠ ق.م لا يزال أثرًا خالدًا يقص علينا الأخطار التي كان يتعرض لها الصينيون من غزوات قبائل المغول والتتار.

والسبب في أن غزوات الرعاة التاريخية على الزراع من الأمم المجاورة كانت أكثر من غزوات الزراع على الرعاة، أن الرعاة في حروبهم يخسرون طفيفا إذا هزموا ويغنمون كثيرا إذا انتصروا، بعكس الزراع الذين لا يجدون ما يشجعهم على غزو أرض الرعاة إلا إذا كان ذلك لإحلال النظام أو الانتقام.

المرأة بين الرعاة: يكاد تعدد الزوجات عند الرعاة يكون نادرة، ويقتصر على راة القوم، كما أنها ظاهرة تشاهد في القبائل التي تمتلك الكثير من القطعان التي تستلزم سهر النساء وعنايتهن كما هو الحال في قبائل **Kalmuick**.

وقد يغالي بعض الناس في تحقير شأن المرأة بين الرعاة غير أن دراسة بسيطة لمركز المرأة في قبائل الكازاك حيث لا تلبس حجابا ولا تنعزل «في الحريم» و تشترك اشتراكًا فعليًا في العمل اليومي للقبيلة شأن النساء في قبائل القرغيز –كما قدمنا– ترينا أن مثل هذه المغالاة لا مبرر لها، وها هي بلاد الصين رغم اشتغالها بالزراعة قرونا طويلة، بعيدة عن الرعاة تضع المرأة في مستوى أقل من الرجل من الوجهة الاجتماعية والدينية والقانونية.

غير أننا لا ننكر أن مركز المرأة بين القبائل المشتغلة بالرعي أقل من مركز الرجل، وربما وجدنا في الحالة الاقتصادية البيئة الرعاة تعليلا لذلك، وهو أن نصيب المرأة من العمل أقل من الرجل، فهو يقتصر على حلب الماشية وخض اللبن ونسج الخيام غير أن رعى القطيع والانتقال به من مرعي إلى آخر والتعرض لأخطار الحيوان المفترس والقبائل المعادية كل أولئك من أعمال الرجال، فلا غرابة أن ينظر الرجل إلى نفسه نظرة تفوق نظرته إلى المرأة.

الباب الثالث

الزراع

Cultivators

الفصل الأَول
الزراعة في وادي النيل

مقدمة: أثبت التاريخ أن الزراعة هي المهنة التي أدي الاشتغال بها في ظروف خاصة إلى ظهور الإنسان المتمدين، وخروجه من ظلام الوحشية. والزراعة ليست قاصرة على جهة دون جهة، بل هي منتشرة حينما وجد مناخ وتربة صالحة ولذلك نجد الزراعة في أطراف الغابات الاستوائية في أحط مستوى لها، وكذلك نجدها في واحات الصحراوات الحارة، وفي وديان الأنهار، وفي السهول الفسيحة الموسمية وفي الأقاليم المعتدلة الباردة.

ومن دراستنا السابقة للإنسان في الغابات الاستوائية والأصقاع القطبية يتضح لنا أن تأخر الإنسان وركوده في الجهات الأولى راجع إلى عدم حاجته إلى بذل أي جهد للحصول على طعامه، إذ وفرته له الطبيعة، كما أن تأخره في الجهات الثانية راجع إلى قسوة الطبيعة التي تضطره إلى بذل كل مجهوده في الحصول على قوته بحيث لا يترك له ذلك مجالا للنهوض والرقي.

من ذلك يتضح أن بذل الجهد للحصول على الرزق ضروري للتقدم كما أن ادخار بعضه وتوجيه في ناحية نشاط أخري باعث على النهوض والترقي.

حماية الطبيعة: ولكي تدخر الجماعة أكبر قسط من جهدها لاستغلاله فيها يعود عليها بالمنفعة، كان لزاما عليها أن تعيش في سلام وطمأنينة بعيدة عن الحروب والمنازعات التي تسلبها ذلك الجهد المدخر. ولذا لا بد أن تكون المدنية الأولى قد نشأت في جهة آمنة مطمئنة لم تتعرض للعدوان الخارجي، حتى تتمكن في ظل السلام والهدوء من التوسع والتقدم. فاذا وجدت الجماعة من الطبيعة واقيا وحاميا لها بحيث لا تضيع من مجهودها شيئا للدفاع عن نفسها أمكنها استغلال كل قوتها الكامنة في النهوض بنفسها.

وإذا استعرضنا التاريخ وجدنا أن الأمم المختلفة، كانت لها وسائل طبيعية منوعة تحميها وتصد عنها الغارة، كالهضاب الشاهقة الخالية من النبت لشدة برودتها والصحاري الجدباء لتعذر وجود الماء بها والبحار العميقة التي يستحيل عبورها. كل هذه الحوائل كانت فيما مضى تستلزم مجهودا جبارا لتذليلها، وقبل أن يصل فكر الإنسان إلى استنباط وسائل هذا التذليل كانت الجماعات المحمية قد وصلت إلى درجة لا بأس بها من المدنية تمكنها من مقاومة المعتدين.

ولا جدال في أن علمنا بالأشكال الأولى للمدنية لا يزال ناقصة قاصرة، فليس لدينا ما نستدل به استدلالا قويا على حالة الإنسان خلال تطوره من الهمجية إلى المدنية، فمن الطبيعي إذا أن المدنية التي نعرف عنها الكثير، والتي هي مدار بحثنا الآن لم ينته الإنسان أليها إلا بعد عشرات الآلاف من السنين، وأن نموها خلال هذه الآباد كان بطيئا جدا

إذا قيس بنموها بعد أن توفرت الظروف الكثيرة الداعية للرقي. ولذا فمن الواجب أن نذكر أن الأزمنة التي نعتبرها «أزمنة تاريخية» –رغم ما تخللها من حوادث جسام شكات حياة البشر– هي قصيرة جدًا إذا قورنت بما سبقها من عصور مظلمة.

مما سبق نستنتج أن بزوغ فجر المدنية كان في جهة لم يصل فيها غنى الطبيعة إلى درجة تصرف الإنسان عن القيام بأي مجهود للحصول عل طعامه شأن الغابات الاستوائية، فيركد ذهنه وتفتر همته. ولا في جهة لا تجود فيها الطبيعة بشيء فيستنفد الإنسان كل مجهوده للحصول على طعامه ولا يدخر منه شيئًا ينهض به شأن الأصقاع القطبية، بل في جهة لا تصعب فيها الحياة، في جهة تضطر الإنسان إلى النظر للمستقبل والعمل له في جهة يتسع المجال فيها للجماعة أن تكون مجتمعة أكبر من الأسرة أو القبيلة ولا تسمح لها في الوقت نفسه أن تتشتت فتضيع را بطتها وتتفكك وحدتها، في جهة تحميها الطبيعة من غزو جماعات أخرى تهدم المدنية وهي في مهدها.

مهد المدنية: ولا يطول بنا البحث كثيرا حتى نهتدي إلى تلك البقعة من الأرض التي كانت مهد المدنية الأولى ومسرح التطور من الهمجية إلى حالة أرقى وأكثر نضوجًا.

وادي النيل: نهر عظيم ينساب في واد يانع كونه خلال العصور السحيقة من مادة الحياة وبناه بمجهود جبار أفي فيه زهرة حياته، ممهدة الوعر من طريقه مغذيًا ما جدب من الأرض وباعثًا روح الحياة في شعوب

هادئة على ضفتيه، نهر منت عليه الطبيعة بماء لا ينضب معينه، وعطفت عليه فتفحته من لدنها بالمزيد كلما اشتد وهج الشمس، وكأن الطبيعة تعطف على ساكن الوادي وتعلم ما يقاسيه من قحط إذا ما تأججت نيران الحر اللافح.

عزلة الوادي: واد يانع خصب يمتد من الجنوب إلى الشمال يتسع تارة ويضيق، أخرى يحتضن بين ذراعيه ذلك النهر المبارك باعث الحياة، واد جميل أحاطته عن يمينه وشماله صحراوات قاحلة تنعدم فيها معالم الحياة، وتهدد بالموت والفناء كل من حدثته نفسه بالاقتراب منه. واد يقف أمامه ذلك البحر المتلاطم الذي لا يعلم أحد ما وراءه. وإد تقف في أعالي نهره جنادل وعرة تحطم دون شفقة أو رحمة كل من ساقه سوء الحظ إلى اختراقه.

ذلك هو وادي النيل مهد المدنية الأولى. توفرت فيه كل العوامل الباعثة على النهوض، فقد وجدت الجماعة الناشئة فيه من خصب التربة ما شجعها على فلاحتها واستغلالها، فلم تم بها الطبيعة من الرزق ما يورثها الفتور ولم تقبض عنها يدها قبضا يورث اليأس والقنوط.

ولقد كان في تغير حرارة الفصول وقلة المياه وكثرتها في فترات متعاقبة ما حدا بهذه الجماعة إلى التفكير في الحاضر والمستقبل. معا وبذلك استثمر القوم مجهوداتهم في الانتاج. كما أن ضيق الوادي كان باعثا على سهولة ارتباطها وتعارفها، ومحافظا على وحدتها وحائلا دون تشتتها.

ويدلنا ما نعرف من معلومات بسيطة على أن ساكن وادي النيل في أول عهدنا بالتاريخ كان إنسانا يعيش في مستوى أرق من الحالة الوحشية قليلا، وما لبث ذلك الإنسان أن ترك الميدان لإنسان آخر أكثر قوة وانتاجا عاش في وادي النيل ما يقرب من الألفي عام قبل أن يتسع المجال لظهور قدماء المصريين الذين تعرف عن مدنيتهم الشيء الكثير.

وقد قضى المصريون القدماء عصورا طويلة تحميهم تلك الحواجز الطبيعية المنيعة، فنبتت مدنيتهم، ونضجت نضوجا بطيئًا قويًا، وما لبثوا أن ازدهرت حالهم ووصلوا إلى درجة من الرق مكنت الأسرة الرابعة من تشييد الأهرام العظيمة الخالدة. وقد ظلل المصريون دهورًا طويلة تقدر بأربعة آلاف سنة تقريبا محافظين على استقلالهم ووحدتهم بفضل تلك الموانع الطبيعية. وها أطول مدة قضتها أمة مستقلة موفورة الكرامة. غير أن تلك العزلة الطبيعية الطويلة التي ساعدت الأقوام المصرية القديمة على استنبات المدنية وتعهدها كانت هي نفسها عاملا من عوامل القضاء على استقلالها.

ستكاية المصريين: فقد استكان المصريون في طوال عهد استقلالهم واعتمدوا اعتمادا كليا على الطبيعة في حمايتهم وصد الغارات عنهم فلم يتعلموا سبل الكفاح والدفاع عن النفس ولم يهيئوا أنفسهم لمواجهة تلك الظروف القاسية المعقدة التي ظهرت في العالم بعد أن تقدم وارتقى فاذا ما ظهرت على مسرح الوجود أقوام أخرى أصلب عودا وأشد مراسا كالفرس والرومان لم يسعهم إلا الخضوع لهم والاستكانة لسلطانهم.

قوة البناء الاجتماعي في مصر: غير أن تلك الغزوات التاريخية التي تعرضت لها مصر تباعا في خلال تاريخها الطويل كان أثرها في الغزاة أكثر وأشد منه في سكان البلاد. فشرعان ما كان الفاتحون يندمجون في الشعب المصري اندماجا كليا ويعتنقون ديانته وتقاليده، شأن الهكسوس والبطالسة.

وهذه القدرة على المصير راجعة إلى بطء البنيان الاجتماعي في العصور الطويلة بحيث أصبحت أسس الأنظمة ثابتة راسخة لم تؤثر فيها عواصف الفتح أو الغزو.

وأهم ظاهرة اجتماعية في حياة المصريين، تلك التي لها أثر ظاهر في حياتهم العامة والخاصة، هي قوة الرابطة بين أفراد الأسرة الواحدة، وشدة العطف المتبادل بينهم. ولعل ذلك يرجع إلى أثر البيئة الزراعية. ففي الغابات الاستوائية، والأصقاع القطبية حيث يتنقل الإنسان ويطول تغيبه عن منزله، سعيا وراء الحيوان يصيده، أو إلى الثمار يجمعها، ترى التفكك في الأسرة، ولا يجد العطف سبيله إلى قلوب أفرادها، بل إن الاسكيمو كثيرًا ما يتركون الكهول والعجزة منهم للموت إذا اضطروا إلى الرحيل إلى جهة نائية. فاذا ما اشتغل الإنسان بالرعي في جهة خاصة، وقل تنقله نسبيا، واستقرت الحياة العائلية واشتد الاتصال بين أفراد الأسرة قويت الرابطة بينهم، وشعروا بأهمية الاجتماع والاتحاد.

أما الزراعة فهي المهنة التي تربط الإنسان بالأرض وتضطره إلى العناية بها وتحسينها حتى يكفل لنفسه ولأسرته رغد العيش، وبذلك تعيش الأسرة طوال حياتها في بقعة واحدة، فيتألف أفرادها ويقوى عطفهم على بعضهم البعض إلى درجة يكرهون معها الانفصال عن الأسرة.

وقد كان لهذه الظاهرة آثار كبيرة في حياة المصريين الخاصة والعامة، نجمل أهمها فيما يلي:

أولًا – عدم رغبة الوالدين في انفصال أبنائهم عنهم بعد زواجهم، ولا تزال تتمثل هذه الظاهرة بوضوح في الأسر الكبيرة في قرى مصر حيث تجد الرجل وزوجته وأبناءه وزوجاتهم في السعيد. واحد يشرف عليه الأب وله فيه الكلمة النافذة، ويُسمى هذا «النظام الأبوي» System Patriarchal وقد سبق أن تكلمنا عليه في بيئة الرعاة.

ثانيًا – الرغبة عن الهجرة إلى بلد بعيد عن موطن الأسرة، فكثيرا ما نرى موظفي الحكومة إذا نقلوا إلى بلد بعيد عن أسرتهم أقامهم الأمر وأقعدهم وعكر صفو عيشهم. وكثيرة ما تأبى الزوجة اصطحاب زوجها إلى ذلك البلد لأنها لا تود الابتعاد عن أهلها وعشيرتها. وقد كان لهذه الظاهرة أثرها في عدم إمكان استغلال المصريين للواحات المصرية أو بلاد السودان، تلك البلاد الشاسعة الغنية القابلة للاستعمار.

والمصريون في ذلك يختلفون تمام الاختلاف عن الشعوب السكسونية وخاصة الانجليز. اولئك القوم الذين يهاجرون إلى أقاصي المعمورة حيث يكونون لأنفسهم أوطانا جديدة يصبغونها بصبغتهم الخاصة ويستغلون مرافقها وبذلك يؤدون لبلاده أجل الخدمات.

ثالثًا – سيطرة «الوساطة» على الانظمة الاجتماعية المصرية ولا أخال القارئ إلا ذاكرة هذه الكلمة على أفواه. الكبار والصغار من المصريين، فالطالب إذا أراد الالتحاق بمدرسة، والشاب إذا أراد الالتحاق بوظيفة، سعى إلى رجل ذي مقام رفيع يتوسط لدى ولاة الأمور في قبول طلبه. وقد أدى هذا إلى قبر الكفايات والنبوغ، وأدى بالكثير من الناس. إلى الخمول واليأس، لان كل مؤهلات يضرب بها عرض الحائط إذا تعارضت مع «الوساطة».

ولعلنا واجدين في شدة ارتباط العائلة تعليلا لذلك إذ من مصلحة الزراعة في البدء أن يشرف عليها أفراد العائلة الواحدة، لان كلا منهم يتهمه مصلحة الأرض وازدهار الزراعة، فاذا أتاحت الظروف لاحد أفراد الأسرة أن يشغل مركزا كبيرا لا يحجم عن مساعدة أفراد أسرته بل و«بلدياته».

رابعًا – تقدير المصريين للمادة قبل كل شيء لان عظمة الشخص تقدر عنه المزارعين بمقدار ما يملك من أرض وعقار بغض النظر عن مركزه الادبي أو علمه، ويتجلى تقدير المصريين للمادة بوضوح في حالات الزواج خصوصا في السنوات الماضية، إذ كثيرا ما تزف البنت

إلى رجل جاهل طاعن في السن لأنه يملك كذا وكذا من الأراضي، ولديه مقدار كذا من المال في المصارف. ولا يخفى على القارئ ما تسبب هذه الظاهرة من المشاكل الاجتماعية التي كثيرا ما تؤدي إلى تعاسة الأسرة بأكملها.

وقد تعدت هذه المادية إلى الفن والذوق، فأصبح المنزل يقدر بمقدار ما يجلب من إيراد شهري، لا بجمال بنائه وحسن هندسته. كما تعدت إلى عدم تقدير الادباء والنابغين من الشعراء والكتاب ولا أدل على ذلك من أن أتعس طائفة عندنا من الوجهة المادية هي طائفة الأدباء والشعراء.

وهناك ظاهرة أخرى نشأت أيضا عن استقرار الإنسان في البيئة الزراعية، وقوة الرابطة العائلية. تلك هي عادة التواكل وعدم الاعتماد على النفس، وتتجلى هذه الظاهرة في أن كثيرين من الشبان يتزوجون قبل أن يتمكنوا من الحصول على رزقهم بأنفسهم، ويعيشون في منازل آبائهم مدة طويلة دون أن يشعروا بالخجل أو العار، بل تراهم يفخرون بذلك على أولئك الذين كونوا أنفسهم واستقلوا في حياتهم، وهذه الظاهرة السيئة تناقض الحالة في بلاد الإنجليز، حيث يستقل الفرد بنفسه سواء كان رجلا أو امرأة بمجرد إمكانه الحصول على قوت يومه. وقد أدى هذا التخاذل وعدم الاعتماد على النفس إلى قلة الانتاج الشخصي، لأن الشخص الذي لا يثق بنفسه ويعتمد على أهله أو أصدقائه قاما يكون لنفسه مركزًا ممتازًا أو ينتج لأمته إنتاجًا حسنًا.

وها هم طلبة مدارسنا لا يتطلبون من مدرسيهم أكثر من إملاء مذكرات مقتضبة في المواد التي يدرسونها حتى يُمكنهم حفظها واستظهارها، أما الاطلاع والأبحاث الخاصة، فأشياء ممقوتة بعيدة عن دائرة تفكيرهم.

وها هم شبان مصر المتعلمون لا مطمع لهم ولا أمل تصبوا إليه نفوسهم إلا وظيفة حكومية يلتصقون بمقعدها، ويخلون إلى الراحة في كنفها بعيدين عن معترك الحياة. أما الكفاح والجهاد ولذة الانتصار على الصعاب والاعتماد على النفس فليس لكل هذا وزن لديهم. ولعل هذا الاستقرار المنشود هو صورة أخرى للاستقرار الأول الذي يشعر به ساكن البيئة الزراعية.

وقد أدى الاهتمام بمصلحة العائلة دون المصلحة العامة إلى إغفال الكثير من موظفي الحكومة لأعمال وظائفهم بل واستغلالها لمصلحتهم الخاصة أو لمصلحة عائلاتهم حتى إذا تعارضت هذه مع مصلحة العمل، وهذه ظاهرة شائعة لها أثرها في سوء الادارة الحكومية وتعقد الاجراءات المصلحية.

الحجاب في مصر ومركز المرأة في البيئة الاجتماعي

لم تكن المرأة الفرعونية متحجبة أو منعزلة عن الرجل، إذ لم تر أثرا للنقاب في صوره أو نقوشهم أو تماثيلهم كما أننا نعلم من تاريخهم أن المرأة كانت تشارك الرجل في الزراعة وكل ما يتعلق بها من أعمال.

كذلك لا نجد للحجاب أثرا بين نساء العرب فقد كن يقمن بالكثير من الأعمال التي تستلزم الاختلاط بالرجل كالتجارة والرعي، ومن المعروف عن العرب أن نساءهم تشارك الرجال في طعامهم إلا إذا كان هنالك ضيف عريب عن القبيلة. ولا نظن أيضًا أن الحجاب جاء مع الاسلام إذ ليس في الاسلام حض على الحجاب كما نعرفه الآن. وقد كان بين النساء في صدر الاسلام الشاعرات والتاجرات والمحاربات، وكل هذا يستلزم الاختلاط بالرجال.

وقد حض الدين الاسلامي على وجوب تعليم المرأة واحترامها ومراعاة حقوقها، كما أن هناك بلادا يدين بعض سكانها بالدين الاسلامي وليس الحجاب معروفا لديهم كالصين. إذا لابد أن يكون الحجاب دخيلا على المصريين، ولا أخالي مخطئا إذا قلت إنه حدث من أحداث الحكم التركي في مصر إذ المشاهد أن أغلب الدول التي خضعت للحكم التركي يشيع بينها الحجاب وتنعزل فيها النساء عن الرجال.

والواقع أن كلمتي «حريم» و«حرملك» من أصل تركي. والثابت أن الأتراك عند هجرتهم إلى بلاد الأناضول من سهوب آسيا حيث كانوا منعزلين انعزالا كبيرا عن العالم الخارجي أرادوا المحافظة على كيانهم الاجتماعي فلا يختلطوا كثيرا بالشعوب التي نزلوا بينها وكانوا يفردون للغرباء من اليهود والنصارى أحياء خاصة، كما كانوا يعزلون ما بين منازلهم بحدائق واسعة، ويظهر أنهم أيضا كانوا لا يودون أن يظهروا نساءهم للمسيحيين من سكان البلاد فألبسوهن ذلك القناع المعروف

Veil، ولما كان الأتراك مشهورين بقسوتهم والرغبة في إملاء إرادتهم على رعاياهم اضطرت الشعوب التي حكمها الأتراك فيما بعد إلى مجاراة الطبقة الحاكمة في تقنيع نسائم وعزهن عن الحياة الخارجية. ولا أدل على ذلك من أن الباب في مصر قاصر على الطبقة الراقية أو المتوسطة، أولئك الذين كانوا يختلطون بالأتراك إبان حكمهم، حتى الأقباط الذين يعرف عنهم عدم التحجب. أما الفلاحات المصريات فلا يعرفن الحجاب مطلقا، إذ ترى الفتاة في الحقل تعمل إلى جانب الشاب دون خوف أو حياء، ولا تغطى الفلاحة المصرية وجها إلا عند مرور سيد من سادة البلد تري من مظاهر الاحترام له فقط ألا تظهر سافرة أمامه.

على أن مركز المرأة المصرية في الهيئة الاجتماعية لا يزال أقل بكثير من مركز الرجل، وهذا شأن المرأة دائمًا في البيئة الزراعية وبيئة المراعي، حيث لا يساوي العمل الذي تقوم به في الأهمية عمل الرجل. وقد رأينا عند الكلام على بيئة المراعي أن الرجل إذا رأي أنه يتحمل من المسئولية في الحياة نصيبًا أكبر من نصيب المرأة نظر إلى نفسه نظرة مكبرة ولم يقدر المرأة تقدير كبيرًا.

كما أن الاشتغال بالزراعة يستلزم عدم تغيب الرجل عن منزله، ومباشرته شخصيا للأعمال المتعلقة بالأرض وبذا لا تتاح الفرصة للمرأة للإشراف على شئون العائلة أو إظهار شخصيها. هذا إلى أن طول انعزال المرأة عن الحياة الخارجية، خصوصًا بين الطبقات المتوسطة والراقية قد أوجد هوة عميقة بين عقلية الرجل.

وعقلية المرأة، مما جعل أغلب المصريين يغفلون شأن النساء وينظرون إلى الزواج كوسيلة للمتعة الشخصية أو (كواسطة) للرقي والغنى.

أما المشاركة الفعلية في الحياة الزوجية والصداقة المؤسسة على الاحترام وتبادل الآراء وتقارب العقلية فيكاد يكون معدومًا.

نظام الحكم: ويستلزم ازدهار الزراعة استتباب النظام ومراعاة الصالح العام والخاص، ولذا كان الاشتغال بالزراعة داما يساعد على قيام حكومة منظمة تسهر على مصالح الناس وتساعد على رواج محاصيلهم وكثرة إنتاجهم.

ومن المشاهدة أن المزارع سهل الانقياد يسلم أموره بكل بساطة، إلى من يسوسها له، كما أنه يحترم القانون. ولا يسعى إلى كسره Law-abiding.

ولذا كان من الهين على الفلاحين القدماء الخضوع لطغاة الملوك أمثال خوفو وخفرع، كما أنهم الآن يخضعون كثيرًا لملاك الأرض. وهذا ما يجعلني أجزم بطول دوام عهد الملكية في مصر.

الديانة المصرية القديمة: كان الفلاح المصري قديما يروى أرضه وبزرعها مرة واحدة في السنة، عقب الفيضان السنوي، ولذلك كان من المحتم عليه أن يعد العدة للمستقبل في فصل (التحاريق) فكان يخزن الغلة حتى يحتاج اليها وقت الصيف ولذلك غرس في عقله

وتأصلت في نفسه أهمية المستقبل وما يجيء به من ويلات ومسرات، ويتبين هذا في أن ما خلفوه من آثار ما هو إلا معابد **Temples** أو مقابر، فالأولى يعرف منها الأحياء أوقات الفيضان والجفاف وأيام الزرع والحصد.

أما الثانية فهي أمكنة تحفظ فيها جثهم مدى الأجيال المقبلة تزورها أثناءها أرواحهم، كما أن أكبر كتب الأدب المصرية القديمة وهو «كتاب الموتى» يدلنا دلالة واضحة على أن المصريين كانوا قوما يدينون بأهمية المستقبل وما يطويه من حادثات.

الفصل الثاني

الزراعة في «بيرو» القديمة
إمبراطورية الانكا The Inca

هناك في بقعة نائية من الأرض في مرتفعات بيرو **Peru** قامت مدنية قديمة منذ آلاف السنين قوامها الزراعة في الأودية الجبلية التي ترتفع اثني عشر ألف قدم عن سطح البحر. تلك هي مدنية الانكا. تلك الامبراطورية التي كانت تمتد من كولومبيا شمالًا إلى شيلي جنوبًا.

كان نظام هؤلاء الزراع اشتراكيا، فقد كانت الأراضي والحقول والمراعي مقسمة إلى ثلاثة أقسام، للشعب ثلث وللملك وقساوسته ثلثان. وكانت زراعة الأرض واجب الجميع تحت مراقبة مندوب الحكومة الذي كان من واجبه ملاحظة توزيع المحاصيل بالتساوي بين الناس، وكانت الحكومة توزع الملابس والحيوانات الأليفة على الشعب الذي كان يقوم بالعمل للمصلحة العامة، كما كان الدفاع عن البلاد واجب كل فرد يمكنه حمل السلاح.

وكانت المحاصيل الزراعية تخزن في مخازن الحكومة ويعمل إحصاء دقيق لكل ما تمتلك الحكومة من بضائع وأسلحة، ولم يكن مصرحا لأحد أن يغير مهنته أو محل سكنه إلا بإذن من الحكومة، وكان الأمن مستتب في طول البلاد وعرضها ولتسهيل انتقال الجيوش أنشئت الطرق

الحربية على الجبال وفي الوديان. تلك الطرق التي لاتزال حتى الان موضع إعجاب الزوار من الأوربيين.

وقد مهر السكان كذلك في صنع الآنية الفخارية والمعدنية والأسلحة، وكانوا ينسجون ملابسهم من صوف حيوان اللاما Llama والألباكا Alpaca، وكان النساء يلبسن أحذية مكشوفة ويضعن أقراطا في آذانهن.

وكانت الزراعة أهم من السكان في هذه البلاد حتى أن قوة الإمبراطور ونفوذه كانا يتوقفان على مقدار ازدهار الزراعة، وكانت أهم غلاتهم البطاطس والموز والطباق والقطن والذرة، كما كانوا يربون قطعانا من حيوان الجواناكو Guanaco.

وقد شيد القوم في مدينة Cuzco المقدسة شمال غرب بحيرة تيتيكاكا Titicaca معبدين للشمس والقمر، الأول غطيت حوائطه وأبوابه بصفات من ذهب، وفي وسطه تمثال للشمس ذو وجه إنساني تشع منه أشعة من الجواهر النفيسة، أما معبد القمر فقد زين بالفضة، وتوسطته الهة القمر الفضية.

ومن هذا نري أن عبادة الشمس والقمر كانت هي الشائعة بين الشعب الذي كان يعتقد أيضا في آلهة أخرى كالرعد وقوس قزح والأرواح غير المنظورة، ولذلك كان يلبس الناس تمائم حول أعناقهم تقيهم شر الأرواح الخفية.

وكانت جثث الموتى تلف في جلود أو حصائر وتدفن تحت المنازل أو في مقابر خاصه للعظماء، وكان يوضع مع جثة الرجل أسلحته وآلاته، ومع جثة الأنثى آنيتها وأشغال يديها، ومع الأطفال ألعابهم الصغيرة، كما كانوا يقدمون للميت الزهور والفاكهة ويذيعون اللاما. أما ملوك الانكا فكانت تحفظ جثهم في معبد الشمس وزوجاتهم في معبد القمر لأنهم كانوا أولاد الشمس وبنات القمر.

هذه صورة أخرى المدنية قديمة تشبه في دقائقها وأشكالها وعباداتها مدنية قدماء المصريين التي يظن أنها لم تكن أقدم منها كثيرا، مدنية قامت على الزراعة في عزلة عن العالم الخارجي حتى جاء الفتح الإسباني سنة ١٥٣١ فقضى بيزارو **Pizarro** القاسي الخائن بالحيلة والدسيسة على ملك الانكا إذا ذاك المسمى **Atahualpa** إذ استقدمه إلى معسكره يحوط به ثلاثون ألفا من أتباعه، ثم طلب منه اعتناق المسيحية ولما رفض سلط عليه مدافعه دون رحمه، فأسقط أربعة آلاف من جنوده وفر الباقون، وأسر الملك، ولما طلب إطلاق سراحه وعده بيزارو بذلك إذا هو ملأ غرفة متوسطة الحجم ذهبا، غير أن الملك بعد أن قام بما طلب منه، خنقه أتباع بيزارو وهو في السجن دون شفقة أو رحمة. وهذه أكبر وصمة عار في جبين الفتح الإسباني.

الفصل الثالث

الزراعة في الصين

ننتقل الآن إلى دراسة مدنية أخرى قديمة قامت أيضا على الزراعة في ظروف شبيهة بظروف المدنية المصرية القديمة من حيث حصانة موقعها، وعدم تعرضها للأخطار الخارجية ولو أنها تختلف عنها في اتساع رقعتها ووصولها إلى بقاع أكثر امتدادا من وادي النيل الضيق.

وإذا بدأنا بدراسة العوامل الجغرافية التي أدت إلى قيام المدنية في الصين، وضح لنا أن هذه البلاد عظيمه الاتساع يحدها من الجنوب الغربي هضاب عالية تكاد تكون خالية من الحياة كهضبة التبت التي ترتفع عن سطح البحر ثلاثة أميال تقريبا، وتندرج هذه المرتفعات في الانخفاض إلى الشمال حيث تصير بقاعا شبه صحراوية لا يحدها البصر.

أما في الجنوب فتحميها مرتفعات الهند الصينية وهضابها المغطاة بالغابات الكثيفة المجهولة وكذلك يحميها من الشرق أوقيانوس عظيم لا يعلم ما وراءه ولم يجرأ الإنسان على الاقتراب منه أو التفكير في عبوره.

وإذا انتقلنا من حدود الصين إلى داخل البلاد تبين أنهارًا ثلاثة تنبع من الهضاب والمرتفعات الغربية وتنساب في السهول الشرقية إلى المحيط الهادي، تلك هي أنهار هوانجهوا في الشمال ويانجتس كيان في الوسط وسى كيانج في الجنوب.

وفي وادي نهر واى هو (Wei = Clear) أحد فروع هوانجو توفرت تلك الظروف الكثيرة التي تلائم ظهور المدنية الأولى. فوادي النهر تحميه الأراضي شبه الصحراوية التي يمكن اعتبارها حصونا طبيعية في تلك الأزمان الخالية، ثم أن الفصول في تلك الجهة تتغير تغيرًا محسوسًا يبعث على النشاط والعمل والتفكير في الغد، وبذا ترقى القوة المفكرة عند الإنسان، كما أن ماء النهر يشجعه على زراعة الأرض، ويحتم عليه في نفس الوقت حفظه التحسين الانتفاع به. ولذا فليس بالعجيب أن يشتغل آدم الصين كما اشتغل آدم مصر والعراق بالزراعة في بدء خروجه عن حاله الهمجية القديمة.

ولقد تشابهت المدنيتان المصرية والصينية، في دور الطفولة وما درجتا من مرحلة النشوء حتى ظهر بينهما خلاف محسوس لعل مرجعه بيئة كل منهما. فوادي النيل ضيق يلائم نشوء المدنية ويساعد على ارتباط السكان وانتشار الأفكار بينهم إلا أنه يعوق اتساع المدنية وانتشارها إذا ما قويت وكبرت. أما موطن المدنية الصينية الأول وهو حوض نهر (وي هو) فإنه يتصل شرقًا بالسهل الأعظم للصين في حوض نهر هوانجهو الأدنى، وهو من أكبر سهول الأنهار في العالم، فكان ميسورا على الصينيين بعد نموهم واتساع حضارتهم أن يسيروا مع النهر إلى بقاع خصبة عظيمة، لا تختلف في ظروفها المناخية أو تربتها عن بلاده الأولى، حيث زرعوا الأرض كما كانوا يفعلون وركزوا أنفسهم في وطن ثان شبيه بالوطن الأول.

في هذا السهل الفسيح من الصين ظل الصينيون من ألفين إلى ثلاث آلاف سنة قبل الميلاد يشتغلون بالزراعة وينشئون مدنية عظيمة واسعة النطاق، كان قوامها الأرض وما تنتجه وقد يبدو لنا غريبا أن تظل المدنية الصينية تلك الأحقاب الطويلة قاصرة على حوض النهر الشمالي ولا تتعداه إلى أحواض الأنهار الجنوبية الأخرى غير أن نظرة واحدة إلى جبال تسن لنج الممتدة من الغرب إلى الشرق في حوض نهر يانج تسى كيانج، وما يقع إلى جنوبها من غابات كثيفة تظهر لنا صعوبة الاتصال بين شمال الصين وجنوبها.

ولكن تلك العوائق الطبيعية لم يتعد أثرها تأخير المدنية الصينية مدة من الزمان عن الانتشار إلى الجنوب، فسرعان ما طفت الأقوام الشمالية على الجزء الجنوبي من الصين وأصبح الكل وحدة متجانسة. لأن هذا الجزء من الصين شبيه بجزئها الشمالي، يرويه نهران كأخيهما الأول وينسابان في حوضين خصبين يصلحان للزراعة كالخوض الأول، وبذا لم تكن مشكلات الزراعة والري التي قامت في حوض هذين النهرين بغريبة على قوم مارسوا هذه المهنة ودقائقها ثلاثة آلاف سنة من قبل، وما وافي الميلاد حتى كانت تسيطر على الجنوب والشمال معا أسرة Han الصينية التي كانت معاصرة للدولة الرومانية في الغرب.

وقد واجهت هذه الأسرة نفس المشكلة التي كانت تواجهها الدولة الرومانية، وهي كيفية حكم إمبراطوريتها الواسعة وربط أجزائها ربطا محكما، وقد تغلبت الدولة الرومانية على هذه المشكلة بأنشاء الطرق

الحربية العظيمة التي تسهل الانتقال بين أجزاء البلاد. غير أن إمبراطورية الصين وجدت في نهر يانج تسي كيانج وفروعه طرقا هامة للاتصال فاستغلتها في ربط انحاء البلاد ببعضها، وبذلك لا نخطئ إذا قلنا «إن الصين بلاد الأنهار» لا لأنها مليئة بالأنهار بل لأن الأنهار كان لها أثر عظيم في توحيدها في فترة طويلة من تاريخها، ولولاها لما كان في الإمكان أن تصبح الصين وحدة متجانسة من شمالها إلى جنوبها كما هي الآن. ولذا لم تسكن القوة التي ربطت أجزاء الصين بعضها ببعض قوة حكومية مركزية، بل قوة التجانس بين الأقوام في العادات والآراء وأساليب الحياة. والحق أن هذا التجانس الاجتماعي كان وليد تجانس العوامل الجغرافية التي سادت أجزاء الصين إبان تاريخها الطويل.

غزوات المغول: ولقد تعرضت الامبراطورية الصينية في فترات من تاريخها الغزوات القبائل المغولية كما تعرضت الدولة الرومانية، وقد كان هذه من نهري الرين والدانوب ومن القلاع المنيعة التي شيدتها حصونا لدفع هجمات المغيرين، غير أن الصين بنت لصد هجمات المغول سورها العظيم الذي يمتد من خليج بتشيلي إلى حدود هضبة التبت في مسافة طولها ١٦٠٠ ميل تقريبًا. وبذا أمنت شر الغارات مدة من الزمان. غير أن النهاية كانت آتية لا ريب فيها إذ تحرك سكان الهضاب الغربية وقاموا يسيطرون على سكان الهضاب المجاورة لجبال الطاي ثم اندفعوا إلى السهول الشرقية. وتمكن «كوبلاى خان» سنة ١٢٨٠ من السيطرة على الصينيين والتتار.

تأثير البيئة الجغرافية في الغزاة والفاتحين: غير أن تلك الغزوات المغولية لم تؤثر في الصين تأثير كبيرة ومثلها في ذلك مثل مصر التي لم تؤثر فيها غزوات الأقوام الغريبة عنها كالهكسوس مثلا، وكما عبد الهكسوس آلهة المصريين واتبعوا تقاليدهم وعاداتهم، كذلك اندمج غزاة الصين في أهل البلاد وتضاءلت شخصية الفاتحين أمام شخصية السكان، وما ذلك إلا لأن المدنيين الصينية والمصرية المؤسستين على الزراعة، كانتا أرقى بكثير من مدنيات الأقوام المجاورة والمؤسسة على الرعي فقط، كذلك كانت الأنظمة الاجتماعية فيهما وليدة آلاف السنين، راسخة قوية إلى حد تضاءلت أمامه أنظمة أمم ليس لها من فضل تدعيه غير القوة الجثمانية فقط.

تعلق الصينين بالأرض: وقد ظل الصينيون زراعا فقط ولم يكن للبحر أثر في توجيه أفكارهم إليه، إذ لم تكن بلادهم فقيرة تضطرهم إلى الالتجاء للبحر، كما حدث مع أهل الشمال The Norsemen، كما أن الأرض لم تكن ضيقة بحيث يفرون منها إلى البحر إذا هاجمهم غيرهم، بل كان في بلادهم متسع للجميع، كما أن شواطئهم لم تكن كثيرة التعاريج بحيث تستميلهم للملاحة وركوب البحر كالإغريق. وبذلك تعلق الصينيون بالأرض واصطبغت حياتهم بصبغة الزراعة خلال أربعين قرنا أصبحوا بعدها وحادة متجانسة ولم يتناثروا كما تناثرت أجزاء الدولة الرومانية، تلك التي كانت خليطا غير منسجم.

آثار الزراعة في الصين

أولًا – قوة الرابطة العائلية عندهم، وحبهم للإكثار من النسل: ولعل هاتين الظاهرتين قد تأصلتا أيضا بغزو قبائل الرعاة للصين، إذ يشجع الاشتغال بالرعي على الاكثار من النسل وارتباط العائلة ارتباطًا وثيقًا حتى يمكنها الاشراف على القطيع الكبير العدد، وقد حض نبي الصين «كنفشيوس» أيضا على الاكثار من النسل واحترام الأبناء للآباء. وقد كان لهذه الظاهرة أثر سيء في الحالة الاقتصادية في الصين إذ أصبحت البلاد مزدحمة بالسكان إلى حد الحط معه مستوى المعيشة وكثرت الوفيات.

ثانيًا – ظهور النظام الأبوي **Patriarchal System** بينهم وهم في ذلك يشابهون المصريين أيضا لأن عمداء العائلات الكبيرة عندنا لهم نفوذ كبير على أفراد الأسرة، وكلهم نافذة على الصغير والكبير لدرجة أن الحكومة المصرية تعترف اعترافًا غير مباشر بهذا النظام إذ تعين عمد البلاد من الأسر الكبيرة التي يكون لها احترامها و نفوذها في القرية، غير أن هذا النظام في الصين قد انتشر وتأصل بحيث أصبح الأبناء يعبدون آباءهم ويقدسون أرواحهم بعد موتهم **Ancestor Worship**.

ثالثًا – إيثار المصلحة الخاصة: فالصيني يشابه المصري في تفصيل، مصلحة أسرته على مصلحة الحكومة وذلك لقوة الرابطة بين أفراد الأسرة.

غير أن هذه الظاهرة قد قويت في الصين أكثر من غيرها من البلدان الزراعية الأخرى لأن الحكومة المركزية لا يمكنها أن تنشر نفوذها وتشعر الناس بوجودها العظم اتساع البلاد وامتداد أطرافها.

رابعًا – شدة صبرهم وطول أناتهم: فإن من شيمة الزارع أن يرقب البذور تنمو ببطء ولا تؤتي ثمرها إلا بعد شهور عدة وإنه ليرقب ذلك في صبر جميل وابتسامة راضية، ولذلك تجد الصيني يبدأ في عمل زخرف من الزخارف وهو يقول «إذا هلكت قبل إنجازه أتمه ولدي»، وقد كان لهذه الظاهرة أثر في صبرهم على المكاره وتحملهم للصعاب وعدم تبرمهم بالحياة مهما تعكر لونها.

خامسًا – المحافظة على القديم: ولعل في طول انعزالهم عن العالم تفسير هذه الظاهرة، فقد لبثوا قرونا طويلة بعيدين عن العالم لا يزورهم تجار ولا يهددهم غزاة حتى كانوا يعتقدون أن بلادهم مركز العالم The Middle Kingdom، كما كانوا يعتقدون أنهم هم الممتازون Jin or chins = The Men.

تلك مدنيات عاصرت فجر التاريخ، تفلح الأرض وتنبت الحب ولا تزال قائمة – مع تعاقب الأجيال – تنطق بأثر البيئة في الإنسان وتحمل طابع «الزراعة» واضحًا جليًا.

ومن المحقق أن «الزراعة» سائدة في أغلب بقاع العالم كلما سمحت ظروف التربة والمناخ بذلك. كما أن الاعتماد على «الزراعة» فقط لا يكاد يوجد. فجماعات الصيد في الغابات الاستوائية يزرعون

أحيانًا رغبة في الاحتياط للطوارئ حين يتعذر عليهم الصيد. كما أن بعض الرعاة في سهوب آسيا يخصصون جانب من أرضهم للزراعة ويسمدون الأرض بسماد الحيوان. كذلك نجد أعراب الصحراء في الواحات يزرعون ويرعون القطيع.

كما أن أمم أوروبا تزرع وتشتغل بالصناعة والتجارة. وهكذا تجد مهنة الزراعة منتشرة في أنحاء الأرض ولا يمكن أن يستغنى عنها الإنسان لأنها مورد غذائه الأساسي.

وإذا تعذر على أمة إنتاج ما يكفيها من الغلات الزراعية اعتمدت على أمم أخرى بعيدة أو قريبة في استيراد ما تحتاج اليه. وقد سهل هذا الأمر ما وصل اليه العلم الحديث من اتقان طرق الاتصال حتى كاد يصل بها إلى درجة الكمال.

وسنحاول الآن أن نلم ببيئات زراعية أخرى في جهات متباينة من العالم حتى نعلم أهمية هذه المهنة ومبلغ احتياج الإنسان اليها في كل أدوار حياته.

الزراعة في غابات البورو The Boro

يعيش أفراد هذه القبيلة في جماعات صغيرة لا يتجاوز كل منها الثلاثين في وسط الغابات الاستوائية الكثيفة حيث يحرقون الأشجار الكثيفة ويزيلون الأعشاب التي تغطي الأرض، ثم يقوم النساء بزراعة المانيوك والكوكا والطباق، ولا تدوم مزرعتهم هذه ويلا لأن القوم لم

يبتدعوا الوسائل التي يقاومون بها نمو النبات السريع في الغابات الاستوائية، ولذلك تنتقل الجماعة بعد سنتين أو ثلاث على الأكثر إلى بقعة أخرى حيث تكون الأولى قد طغت عليها النباتات وأصبحت لا تصلح للزراعة.

وتسكن كل جماعة من هذه الجماعات في منزل واحد كبير يشيدونه من الأخشاب المتوفرة لديهم، ويخصص لكل أسرة ناحية خاصة من المنزل تضع فيها آنيتها وأسلحتها.

ويقوم النساء بعمل الآنية من الطين المجفف كذلك يصنعن السلال – لحفظ الحاجيات – من أغصان الأشجار، ويعمل الرجال عصى الصيد والسهام من الأخشاب أيضا إذ لا تتوفر لديهم الأحجار الصلبة.

وهكذا نرى هذه الجماعات المشتغلة بالزراعة في الغابات الاستوائية لاتزال متأخرة جدًا، بحيث لا يمكن أن نطلق عليها اسم «قبائل» بالمعنى الصحيح وإذا تجاوزنا في تسميهم كذلك، فإنما لنفرقهم عن الجماعات الأخرى المشتغلة بالجمع التي سبق الكلام عليها. فهم يعتمدون على الطبيعة إلى حد كبير في الحصول على غذائهم بصيد الحيوان والأسماك وجمع الثمار، والزراعة عندهم لا تزال في مرحلة البدء ولم يستطيعوا ابتكار أية وسيلة يستغلون بها الأرض استغلالًا صحيحًا، ولا أدل على ذلك من أنهم يتركون موطنهم بعد فترة وجيزة إلى موطن آخر لأن الغابة قد طغت على مزرعتهم.

قبائل الكازاك The Kazak

يشتغل هؤلاء القوم بالزراعة إلى جانب الرعي كلما كانت الأرض خصبة، وتروى الأرض عن طريق المجاري المائية.

وتقسيم الأرض المجاورة للقنوات المائية إلى قطع صغيرة يزرع فيها القمح والشعير والذرة، ويقوم بالزراعة فلاحون من غير رجال القبيلة، وفي بعض الأحيان يقوم بهذا العمل بعض رجال القبيلة من الفقراء الذين لا يملكون قطعانا للرعي، ويعتمدون في الحصول على اللبن واللحم على الأسر الغنية التي يشتغلون في خدمتها.

وإذا كانت مياه القنوات أكثر انخفاضا عن سطح الأرض المزرعة استعملت السواقي لنقل الماء، كما تنقل أحيانا على الأكتاف في قرب من جلود الحيوان، ويحرث القوم الأرض بمحاريث بسيطة تجرها الجيد، ويمهدون الأرض بألواح خشبية تشبه الزحافة عند الفلاح المصري، كما يحصدون الغلة بأيديهم ويدرسونها بخيولهم ثم يخزنون المحاصيل في مخازن كبيرة تقوم إلى جانبها طواحين تديرها قوى المياه.

وهكذا ترى الرعاة أيضا لا يستغنون عن الزراعة في توفير طعامهم بل يلجؤون إليها كلما أمكن ذلك.

الزراعة في الجهات الموسمية

تكاد تكون الزراعة في هذه المناطق في المهنية الأساسية للسكان كما في الهند والصين، وتقوم الزراعة غالبا في أحواض الأنهار الكبيرة الخصبة، مثل الكنج والسند في الهند والميكنح والمينام في الهند الصينية، والهوانجهو واليانجتسى كيانج الصين ولا تزال الزراعة في هذه البلاد متأخرة لا تستعمل فيها الوسائل العامية الحديثة، ولذلك كان إنتاج الفدان في الغلة الواحدة ضعيفًا ونلاحظ ذلك اذا وازنا محصول القمح في الهند، الذي قلما يزيد عن أردبين للفدان الواحد، بمحصول الولايات المتحدة الذي مزيد على ستة أرادب، وذلك راجع إلى أن الأرض في الأولى مجهدة القدم الزراعة ولعدم استخدام الوسائل العامية فيها، أما أرض الولايات المتحدة فهي بكر وتطبق عليها أحدث الأساليب العلمية.

وفي بعض الأقاليم الموسمية كاليابان يقوم الفلاح بزراعة الأرز وتربية دودة القز للحصول على الحرير في وقت واحد، ويسمى هذا «بالإنتاج المزدوج» **Mixed Farming** وذلك لاستغلال الأرض إلى أقصى حد ممكن، كما أنه في الكثير من البلاد الهندية والصينية يتبع الزراع «الدورة الزراعية» **Rotation of Crops** وذلك بزراعة أنواع مختلفة من الغلات على التعاقب حتى لا تفقد الأرض قوتها.

وأهم الغلات الزراعية في الجهات الموسمية الأرز في دالات الأنهار والشاي على سفوح المرتفعات.

الزراعة في أوروبا

توجد الزراعة في أغلب بلاد أوروبا بجانب الصناعة، غير أنها قد تكون في المرتبة الثانية لقلة الأراضي القابلة للزراعة، كما في انجلترا التي لا تنتج أرضها من المواد الغذائية إلا ما يكفي الاستهلاك يوم ونصف اليوم في الأسبوع، والتي تعتمد في الحصول على المواد الغذائية على كندا والولايات المتحدة والأرجنتين واستراليا ونيوزيلاند.

وقد تكون الزراعة في المرتبة الأولى كما في فرنسا والروسيا ورومانيا. وفي جميع الحالات تزرع الأرض بأحدث الطرق العالمية، فتستعمل الأسمدة الحصبة الأرض، وتستخدم الآلات الدقيقة في الحرث والري والحصد والدرس.

وبذلك تستغل الأرض استغلالًا تامًاIntensive Agriculture كما أن الفلاح الأوروبي يعيش في وسط صحي، وهو معتنى به، وله نقابات زراعية قوية توفر له أسباب الراحة ورغد العيش، وتصرف له محاصيله في أسواق رائجة، وتمده بما يحتاج إليه من آلات وأدوات زراعية وبذلك كان مستوى معيشة الفلاح الأوروبي خصوصا في هولندا وانجلترا والدانمرك عالية جدًا.

وفي كل هذه البلاد يتبع نظام (الانتاج المزدوج) في الزراعة، فهم يرعون الماشية والأغنام، ويستفيدون بمنتجاتها Dairy Produce إلى جانب فلاحة الأرض.

ملكية الأراضي

من دراستنا السابقة للزراعة والبيئات المختلفة يظهر لنا أن الجماعات المتأخرة التي تشتغل بالزراعة اليدوية والغابات الاستوائية، كالبورو مثلا، لم يصلوا إلى مستوى القبيلة، بل كانوا يعيشون في جماعات صغيرة متناثرة كثيرة التنقل من بقعة إلى أخرى، ولا يرتفعون كثيرا في الكيان الاجتماعي عن الجماعين والصيادين في الغابات الاستوائية أو الجهات القطبية.

وأمثال هؤلاء لا يهتمون كثيرا بملكية الأرض إلا بمعناها العام، أي أن يكون لكل من هذه الجماعات حدود خاصة قلما تتعداها إلى غيرها. غير أن الأفراد أو الأسر داخل المجموعة لا يمتلكون شيئًا من الأرض؛ لأن إقامتهم في الجهة الواحدة لا تمتد إلى أكثر من سنتين أو ثلاث فلا يقوم بينهم ملاك أو مستأجرون بالمعنى الصحيح، ولو أن وجود العبيد بين المشتغلين بالزراعة في بعض جهات أفريقيا الاستوائية يدل على أن نظام امتلاك الارض واستخدام من يزرعها يكاد يكون أكبر ظهورا في أفريقيا الاستوائية منه في أمريكا الجنوبية في العروض المماثلة.

كذلك يدلنا تاريخ جزائر بولينيزيا **Polynesia** في المحيط الهادي الجنوبي أنه كانت هناك طبقة أرستقراطية من ملاك الارض يؤجرونها ويستغلوا بنظام إقطاعي، ولكن تفاصيل ذلك النظام غير معروفة لدينا.

وكل ما يظهر لنا من دراسة نظام الأرض في جزيرة تاهيتي **Tahiti** مثلًا يدل على أن الأرض ينظر إليها ككتلة يملكها الجميع أكثر منها قطع مستقلة يملكها الأفراد.

غير أن الجماعات الزراعية التي وصلت إلى استخدام المحراث بدت لها أهمية الزراعة، وإمكان الاستقرار في قطعة خاصة مدة طويلة، وبذلك بدأ أقوياء القوم ينظرون إلى قطع الأرض الأكثر صلاحية. ويمتلكونها، ثم يؤجرونها أو أجزاء منها إلى غيرهم ممن ليس لهم ممتلكات، وبذلك ظهر نظام الملاك والمستأجرين ممن ليس لهم أرض **Landowners & Landless** وأصبح لكل أسرة أجزاء خاصة من الأرض تتفاوت حجمها حسب كبر العائلة وقوتها وأكثر ما يتمثل هذا النظام في مقاطعة كوتشين **Cochin** على ساحل ملبار في الهند، كما نراه قائما في مصر والعراق والصين.

وبظهور هذا النظام بدت الحاجة إلى تحسين الزراعة باستعمال وسائل الري المختلفة كالشادوف والساقية، كما تفنن الزراع في طريقة زراعة الأرض فعرفوا قيمة الدورة الزراعية **Crop Rotation** في خصب الأرض وكثرة إنتاجها، كذلك اهتموا بدرس الغلال ووسائل خزنها وطحنها.

وهكذا تتطور الزراعة من أبسط أشكالها في الغابات الاستوائية إلى أرق مظاهرها في أوروبا والولايات المتحدة، وبتطورها هذا تتغير الأنظمة الاجتماعية وتصبح أدق وأكثر تعقيدًا.

الباب الرابع

سكان الشواطئ

COAST PEOPLES

سكان الشواطئ

البحـــر: ينظـر سـكان الشـواطئ إلـى البحـر مـورد لغـذائهم وملبسـهم ووقـودهم، ومسـرح لبطـولتهم ومغـامراتهم، وطريـق إلـى الثـروة والشـهرة. والبحـر ذو تـاريخ أبـدى، وإذا مـا رجعنـا بباصـرتنا إلـى الـوراء اختفى البحر وأقوامه تحت ضباب القدم، فما علمنا عن بدئه شيئا، وإذا امتد بنا الخيال إلى ما تخبئه الأيام في الأجيال القادمة استحال علينا التكهن بمصير تلك الشواطئ البحرية التي يعيش عليها الآن أبناء الأرض والبحر، إذ ربما طوتها الأمواج فأصبحت سر من أسرار الأبدية.

والآن يسوقنا حديث البحر إلى بقعة نائية من المعمورة تعيش فيها جماعات مشتغلة بصيد الأسماك حيث نرى أثر البحر منقوشا على كل مرفق من مرافق الحياة.

الفصل الأَول

النوتكا The Nootka في كولمبيا البريطانية

الموقع: في شمال غرب أمريكا الشمالية على شاطئ المحيط الهادي بين جنوب الاسكا وشمال كاليفورنيا تسكن أقوام كانت حتى القرن الحالي تعيش في معزل عن العالم بحيث لم يتأثروا بالمدنية الحديثة إلا منذ خمسين عامًا تقريبا، حين بدأت أساليب الحياة العصرية تجد سبيلًا إلى تلك البقاع النائية. ومع ذلك لا تزال الغالبية من هذه الأقوام معتمدة على البحر والأنهار الصغيرة التي تصب فيه في طعامهم، ويعيشون في جماعات كبيرة مستقرة لها منازل مشيدة من الاخشاب الصلبة. وأظهر هذه الجماعات وأغناها أولئك الذين يعيشون بين جزيرة فنكوفر عند مصب نهر فريزر والجنوب الشرقي لألاسكا.

التضاريس: وتشبه هذه الجهات في تضاريسها شواطئ النرويج الغربية.

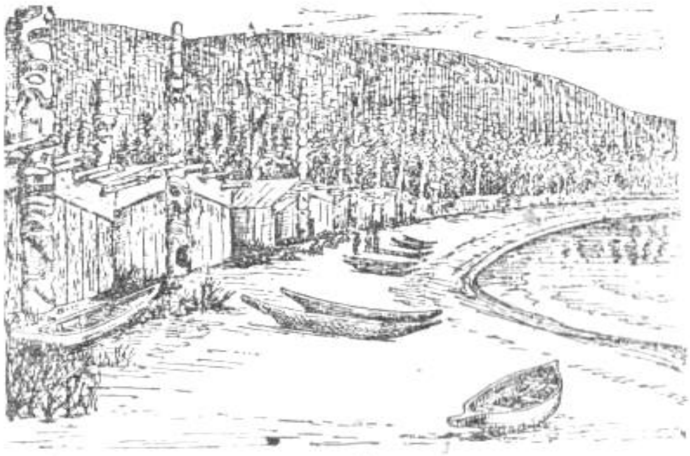
من حيث كثرة خلجانها الصغيرة المسماة فيوردات، والتي تمتد إلى مسافات طويلة داخل الشاطئ، وتطل عليها مرتفعات عالية تأخذ في الارتفاع إلى الداخل حتى تبلغ خمسة آلاف قدم. وتتناثر في المحيط قرب الشواطئ جزائر متفاوتة الحجم، مثل جزيرة فنكوفر، وجزائر الملكة شارلوت التي تعتبر بقايا الشاطئ القديم للقارة قبل أن يطغي عليه البحر.

المناخ: ويشبه مناخ هذا الاقليم مناخ الجزائر البريطانية، إذ تسود عليه الرياح العكسية الجنوبية الغربية طول السنة فتسقط عليه وابلا من الأمطار خصوصا في فصل الشتاء، كما يدفئه تيار اليابان الدافئ، ولذلك كان جليده قليلا قصير الأمد. وقد أدت هذه العوامل المناخية إلى نمو الأشجار القطبية الضخمة المستقيمة على سفوح المرتفعات، وأخصها شجر الأرز **Cedar** والشوكران **Hemlock**، تلك التي يبلغ ارتفاعها أحيانا مائتين وخمسين قدمًا.

حيوان البر والبحر: ويكثر في هذه الجهات الغزال والوعل غير أن غنى البحر بالأسماك المختلفة قد صرف نظر القوم عن صيد حيوان البر وجعلهم يعتمدون على البحر اعتماد كليا، إذ تكثر به الرنجة والكود كما تكثر بالخلجان الصغيرة والأنهار كميات كبيرة من السامون **Salmon** خصوصًا في فصل الصيف، كما يكبر في الربيع سمك الشمعة **Candlefish** وهو سمك صغير لا يزيد طول الواحدة منه عن تسع بوصات ويستخرج منه الزيت. وتعيش على هذه الأسماك الصغيرة الحيتان الضخمة، وأسد البحر وأبقاره ولها في حياة القوم أهمية خاصة.

المسكن: وتسكن هذه القبائل في قرى صغيرة بصفة دائمة غير أنهم ينتقلون في أثناء السنة من مكان إلى آخر، ففي الشتاء يعيشون في القرية الرئيسية الأصلية، حيث يقضون الوقت في صنع القوارب وآلات الصيد والشباك وإقامة الولائم والاحتفالات.

ومن أوائل الربيع إلى آخر الخريف يتنقلون في بقاع مختلفة حيث يبنون مساكن مؤقتة لصيد الأسماك.

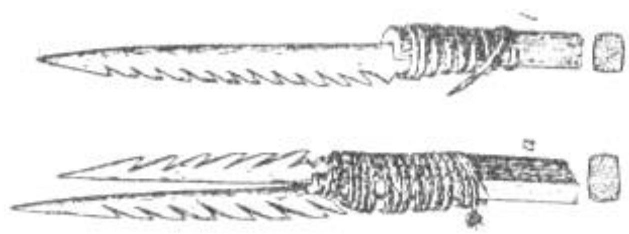


القرية

وقد أدت طبيعة البلاد الجبلية في الداخل إلى المعيشة قرب الشاطئ حيث يبنون منازلهم في صفوف طويلة مواجهة للبحر، ولكل منزل رصيف بحري مستند إلى قوائم خشبية، ويتراوح عدد منازل القرية الواحدة بين عشرين وخمسين منزلًا أو أكثر، ويقطن في كل منها أكثر من أسرة واحدة، وقد يبلغ عدد سكان المنزل الواحد مائة نفس.

وهذه المنازل إما مربعة أو مستطيلة الشكل، ولها سقوف منحدرة حتى لا يبقى عليها ماء المطر، وكلها مشيدة من الأخشاب الضخمة، خصوصا خشب الأرز، وتستعمل في بنائها آلات من الخشب أو العظام.

الملبس: أما ملابس هؤلاء فبالرغم من توافر مادتها فانهم لم يبتكروا لها طابعًا خاصًا، ولم يعتنوا بتفصيلها كما يفعل الأسكيمو مثلا، فيلبس الرجال جلد الغزال ويلبس النساء إزارا من ألياف الأشجار، وليس للجميع أحذية، ويلبسون على رؤوسهم قبعات من ألياف شجر الأرز للوقاية من المطر وقت نزوله، وإذا اشتد البرد في الشتاء التحقوا بأغطية من لب الأرز على أكتافهم. الغذاء ويعتمد هذا الشعب في غذائه على الأسماك والحيوانات الكود البحرية الكثيرة التي يصيدونها في الفصول المختلفة، ومن أهم أنواع السمك «الكود» الذي يصيدونه بجرابهم في المياه العميقة بعد أن يستميلوه إلى سطح الماء بطعم من سمك الرنجة. أما سمك الرنجة فيكير في الخلجان الصغيرة في مارس ومايو حيث يصيدونه بشباك أو بواسطة ألواح من الخشب لها أطراف مسننه يدفعونها في المياه المليئة بالسمك كما في الشكل.



السلمون: وسمك السلمون Salmon هو أهم أنواع الأسماك عند هذه الجماعات ويصيدونه أحيانا في قواربهم الصغيرة، بواسطة الصنانير غير أن أجدى طريقة لصيده هي تتبعه في مجاري الأنهار العذبة عند هجرته اليها في الربيع والخريف، وهو وقت (البيض)، حيث يتجمع

بكميات كبيرة في المسالك المائية الضيقة، فيبنون لصيده سدودا تعترض المجرى، ثم يقتضونه في شباك ومصائد مختلفة الأشكال. وإذا خلت إحدى القنوات من هذا السمك نقلوا اليها بيض السمك من قناة أخرى في الموسم الخاص ليكثر فيها السمك بالتوالد.

أما سمك الشمع Candlefish فيبدأ صيده في منتصف مارس لمدة ستة أسابيع يكثر فيها هذا النوع في الأنهار.

سمك الشمع: وبعد صيده يتركونه مدة أسبوع ليتعفن ثم يغلونه في أوان خشبية فيطفو زيته الذي يجمعونه ويحفظونه في أوعية خشبية ويضيفونه إلى الأسماك المجففة وقت الطعام.

ويلاحظ أن وقت صيد السمك عندهم هو النصف الأخير من السنة، وفي هذا الوقت يقوم النساء بتجفيفه وحفظه وتجهيزه لفصل الشتاء.

صيد الحوت: أما صيد الحوت فهو من أهم وأخطر الأعمال، ولا يصيده إلا فئة خاصة من الناس ترث عن آبائها القدرة السحرية على صيده. وقبل موعد الصيد في أبريل يعتكف رئيس جماعة الصيد في أحد المعابد، ثم يدهن جسمه باللون الأحمر، ويلبس رداء من جلد أبقار البحر، وينتخب مساعديه من أشجع رجال القرية، ثم يخرجون في قوارب يسع كل منها ثمانية أشخاص ويقودهم زعيمهم إلى الجهات التي يكثر فيها الحوت.

فإذا ظهر الحيوان من بعيد اقتربوا منه في حذر شديد، ثم يقذفونه بخطافات خاصة ذات سنان مثلثة الشكل، ثم يوالون قاف، كما ظهر على وجه الماء حتى يقتلوه ثم يجروه إلى الشاطئ – ويعتبر صيد الحوت من أشق الأعمال وأخطرها إذ طالما ضرب الحيوان القارب بذيله الضخم لطمه وقتل من فيه.

القارب: ولما كان صيد السمك والانتقال من جهة إلى أخري في البحر من أسس حياة القوم اهتموا بعمل القوارب من جذوع الأشجار الضخمة التي يقطعونها ويجوفونها ويجرون عليها شتى العمليات اللازمة بآلاتهم الحجرية أو قرون الغزلان الحادة.

وتتفاوت أحجام القوارب حسب الحاجة، وقد يبلغ طول بعضها سبعين قدما وتسع مائة شخص، أما القلاع فيتخذونها من الاشجار وليها.

النظام الاجتماعي: ورغم كثرة موارد الثروة في هذه البقاع وكثرة السكان فيها نسبيًا لم يظهر بينهم نظام سياسي شامل فالقرية هي الوحدة الاجتماعية عندهم، وليس ما يربط أسراتها المختلفة إلا تشابه في اللغة والعادات والتقاليد. وكثيرًا ما تقسم القرية الواحدة بين العائلات المتنافسة.

وفي كل قرية أسرة من النبلاء تمتلك جهات خاصة لصيد السمك والحيوان البري. وجمع الثمار المختلفة، ومن هذا تتكون ثروتها التي تؤهلها للظهور بمظهر العظمة في الاحتفالات التي تعقد في القرية –

ذلك المظهر الذي تتوقف عليه رفعة الأسرة أو خفضها بين الأسر الأخرى الأقل شأنًا.

وقد تمت الاسرة الشريفة في قرية ما بصلة إلى أسرة أخرى في القرية المجاورة، وعندئذ يتبادلون الألقاب والاسماء والدعوات إلى الحفلات المختلفة. وكثيرا ما تتمتع كرائم الأسر في قرية بامتيازات وحقوق في عدة قرى أخرى.

وقد تفقد الأسرة بعض ما كان لها من الامتيازات لنقص في ثروتها لم تستطع معه متابعة الظهور بما تقتضيه مكانها، على حين تقفز أسرة أخرى إلى مرتبة الشرف، وتحوز الألقاب الفخرية لأنها تفوقت في الاحتفالات الشعبية. من ذلك ترى أن الحواجز بين الطبقات لم تكن شديدة، بل كان من السهل ارتقاء الأفراد من طبقة اجتماعية إلى طبقة أخرى أرفع شأنا، إذا مكنتهم ثروتهم من ذلك، كما كان التزاوج بين الطبقات الشريفة والعامة مباحا ولو أنه مكروه.

ويستمد رئيس الاسرة الشريفة سلطته من أفراد أسرته وأتباعه، غير أن سلطته هذه لا تتعدى نطاق أسرته إذ ليس له أن يسيطر على القرية سيطرة سياسية أو ينفذ أنظمة حكومية. ولكنه إذا كان رئيس أكبر الأسر عددًا وأقواها جانبًا اعترف سكان القرية بزعامته اسميا، وعلى عاتق الزعيم تقع جميع مسئوليات الأسرة، وهو الذي يحفظ لها مكانتها. وإذا أهين اعتبرت الاهانة عامة لكل الأفراد وعليهم جميعا غسلها.

الاحتفالات: وتقيم الأسرات النبيلة الاحتفالات الفخمة في مناسبات مختلفة ميلاد طفل أو زواج شاب أو بناء منزل جديد أو وفاة شخص، وفي هذه الاحتفالات تقام الزينات العظيمة ويدعى إليها أفراد الأسر النبيلة المجاورة وكبار الشعب، وتنادي أسماؤهم عند دخولهم و يجلسون في أماكن خاصة بهم، ثم توزع عليهم الهدايا من جلود الحيوان والقوارب، وتعتبر هذه الهدايا ردًا لخدمات البعض، لكنها في أغلب الأحوال تعتبر قروضا جبرية، إذ على هؤلاء الضيوف رد الهدايا في احتفالاتهم الخاصة، وتحاول كل أسرة أن تكون هداياها أعظم وأكثر حتى تنال حقوقا وامتيازات جديدة. وتذكر في هذه الحال بما يحدث في قرى مصر من تنافس بين الأسر الكبيرة على الظهور بمظهر الغي في الافراح والولائم والانتخابات...!

وكثيرًا ما يأسر رجال القبيلة في حروبهم مع القبائل المعادية بعض الأسرى الذين يؤخذون إلى قرى الغزاة ويحفظون تحت الحراسة مدة سنة في أثنائها يمكن فداؤهم، وإلا أصبحوا ملك القبيلة تتصرف فيهم كما تشاء.

العبيد: ويعتبر العبيد مصدر ثروة للقبيلة، وخير إعلان عن غنى الأسر وعظمتها. وبالرغم من أنهم يأكلون ويلبسون كباقي أفراد الأسرة إلا أنهم لا يملكون حقوقًا أو امتيازات، بل أن حياتهم ملاك لأصحابهم وفي كثير من الأحيان يقتل العبد عند موت سيده كما أن بعض رؤساء الأسرة عند بناء منزل جديد، يذبحون عبدًا ويدفنونه تحت أحد الأعمدة الرئيسية في البناء.

وفي الكثير من الأحيان تباع العبيد القبائل مجاورة في مقابل زيت سمك الشمع أو جاود الحيوانات البحرية. وفي قبيلة «تلنجت» في جنوب الاسكا يبلغ عدد العبيد ثلث السكان ويعتبر اقتناء العبيد شرطا أساسيا للمحافظة على مكانة المرد بين مواطنيه.

قلة الحروب بين القبائل: وقد أدى تنافس الأسر والقبائل المختلفة على الظهور إلى محاولة كل قبيلة استغلال موارد وطها الوفيرة بقدر الامكان دون التعدي على غيرها، مما قلل من الحروب بينهم، وقد ساعد على ذلك أيضا أن سكان القرية ينشغلون في الصيف في صيد الأسماك إلى درجة تصرف أفكارهم عن المشاحنات والمنازعات.

المنافسة بين الأسر: غير أن طول المنافسة بين الأسر الكبيرة كان يؤدي أحيانا إلى العداء الظاهر الذي يجر حروبًا قد تظل السنين الطوال.

وإذا قتل أحد الأفراد ولو عرضا أخذ أقاربه بثأره ولهذا كانت أغلب هذه الحروب بين الأسرات داخل القبيلة الواحدة وقلما كانت بين قبيلتين؛ لأن بعد الشقة وصعوبة المواصلات وضرورة التزود بالطعام طول مدة الحرب بعيدًا عن الوطن تحول كثيرًا دون وقوع الحرب بين القبائل.

ولما كانت موارد زقهم وفيرة لم يكن الغرض من هذه المناوشات بين القرى والأسر المختلفة النهب والسلب، بل المقصود منها إذلال الأسرة أو القرية. ويقومون بغاراتها في قوارب مخصصة لهذا الغرض قبيل الفجر، وتكاف كل فئة من الغزاة الهجوم على منزل خاص فيأخذون ما

به ويأسرون سكانه ثم يحرقون القرية حتى لا تقوم لها قائمة بعد ذلك.

هذا وصف مجمل لحياة قوم كانوا إلى عهد قريب يعيشون بين أحضان البحر، لا يعرفون سواه مصدرًا لغذائهم وملبسهم وموجها لنشاطهم توجيها خاصا يميزهم عن غيرهم من الأقوام. وبذلك مهد لنا طريق البحث في أثر البحار بوجه عام في حياة الأمم المختلفة ومبلغ تحويره لتاريخها ومقدار تشكيله لأخلاق الشعوب وعاداتها.

الفصل الثاني
عرض عام للبحار وآثارها ومشكلاتها

لقد أثارت حركة البحر الدائمة وأمواجه الصاخبة المتلاطمة ومده وجز ره دهشة سكان الشواطئ منذ الأزل، وأوجدت فهم الرغبة في استطلاع ما وراء البحر من عوالم مجهولة لديهم، ولقد كانت الأنهار بطبيعة مجراها تسوق الناس إلى شواطئ البحار والمحيطات، وعندها يقفون حيارى وقد أخذهم العجب واستحوذت على نفوسهم الحيرة: هل يمتد ذلك المتسع المائي إلى اللانهائية الصامتة، أم هناك عالم آخر على أطرافه النائية؟!

وقد أدى بهم هذا الشعور إلى المغامرة فبدأوا يجوبون الشواطئ القريبة والجزائر المجاورة، فازداد عالمهم بالبحر وأمواجه وتياراته ثم دفهم الفضول وحب الاستطلاع إلى أبعد من ذلك فاندفعوا في مغامراتهم يصيدون السمك في بقاع نائية من البحر حتى ساق الحظ بعضهم إلى الوصول إلى الشواطئ الأخرى وكان ذلك في البحار الضيقة كالبحر الابيض أيام الفينيقيين والإغريق ثم ذهب الناس إلى ما هو أبعد من ذلك فخرجوا إلى المحيطات العظيمة وأخذوا يجوبونها على غير هدى فوصل فاسكوداجاما إلى الهند وكولمبس إلى أمريكا وبذلك فتح الطريق للكشف في القرنين السادس عشر والسابع عشر فكنت ترى

المغامرين والمخاطرين يهرعون إلى تلك البقاء النائية المليئة بالأسرار، وقد أدى الصراع على امتلاك الأراضي الجديدة إلى النزاع بين أمم أوروبا البحرية الكبرى، وهي هولندا وفرنسا وانجلترا، ذلك النزاع التي خرجت منه انجلترا سيدة البحار ومالكة زمام المحيطات.

وإن ما نراه اليوم من عظمة الدول البحرية اليابان الولايات المتحدة وانجلترا وإيطاليا ما هو إلا أثر من آثار البحار في حياة الناس، وها هي البواخر الضخمة والأسلاك البحرية تربط شواطئ المحيطات وتنقل بينها نواحي النشاط المختلفة من سلع تجارية وآراء سياسية، وبذلك توطدت العلاقات بين الأم التي كنا إلى عهد قريب لا نعرف عن بعضها شيئا. وهكذا نسجت كل دولة بحرية من فينيقيا قديما إلى انجلترا الآن جزء من نسيج هذا العالم العظيم.

الملاحة: ولقد نشأت فكرة الملاحة منذ القدم بين الأقوام المختلفة عندما كان يعترض تجوالهم نهر أو بحيرة فصنعوا الخشب العائمة لينتقلوا بواسطتها من ضفة نهر إلى أخري غير أنهم سرعان ما كانوا ينسون ما صنعوا إذا غابت عنهم تلك العوائق ولم تتركز فيهم فكرة الملاحة إلا عندما بدت لهم الحاجة إلى صيد السمك في الاماكن البعيدة من البحار والبحيرات.

الأطواف: وأول ابتكارات الإنسان للملاحة كانت أطواف Rafts من الخشب أو البوص أو جذوع الأشجار مربوطة إلى بعضها ومغطاة بجالود الحيوان، وأمثال هذه الأطواف ترى الآن في نهر ستلج Sutlej

أحد فروع السند كما نرى شبيها لهافي مصر تلك الأطواف المكونة من الأواني الفخارية المربوطة وفوهاتها إلى أسفل «البلاليص».

القارب: وقد خطا الناس خطوة ثانية فصنع ساكن العراق قاربه من البوص المغطى بجلود الحيوان، وكان ينقل فيه سلعه من أرمينيا إلى بابل وهذه هي القوارب التي شاهدها هيرودوت في نهر الفرات والتي لا تزال باقية إلى الآن، وقد كان البريتون القدماء **Britons** يمتلكون أمثال هذه القوارب ولايزال القوم يستعملونها في أنهار ويلز وشواطئ أيرلنده لصيد السمك.

ثم وصل الفكر الإنساني إلى صنع القوارب الخشبية بتجويف جذوع الأشجار الضخمة إما بالآلات الحجرية أو بواسطة حرقها بالنار، ويدل انتشار هذه القوارب وبقاؤها حتى الآن في أصقاع مختلفة من العالم على أنها من الابتكارات التي وصل إليها العقل الإنساني مستقلًا غير مقلد في ذلك أحدًا.

جزائر المحيط الهادي والملاحة: ولقد نشطت الملاحة بصورة واضحة بين سكان جزائر المحيط الهادي الجنوبي منذ القدم لان البحر كان ولا يزال أكبر ظاهرة في حياتهم فمناظرهم الطبيعية بحرية ورحلاتهم للصيد بحرية وغاراتهم على بعضهم كلها بحرية، وبذلك كانوا من أكثر الشعوب تجوالا في البحر فدرسوه دراسة عميقة وأصبحوا خبراء بتقلباته وأرجائه، ورسموا لجزائرهم وما جاورها خرائط دقيقة دهش لها كوك عند زيارته لهذه الجزائر، وقد رسم له أحد سكان تاهيتي خريطة بها أربع

وسبعون جزيرة، كما قص عليه أنباء ستين أخرى وهذا يبين لنا مبلغ اهتمام سكان الجزر بالبحر وأثره في حياتهم وعقليتهم.

البحر الأبيض: وقد لعب البحر الأبيض المتوسط وجزره وأشباهها دورًا هامًا في الملاحة. فقد شجع هدوء ذلك البحر وقلة زوابعه وتياراته على اشتغال سكان شواطئه بالملاحة وساعده على الأخذ بأساليبها. غير أن هذا البحر المصور كان مهد للملاحة فقط، ولكنه لم ينتج ملاحين أشداء مغامرين، ولذا نرى اليوم الخطوط الملاحية الكبرى التي تجوب أطراف العالم في يد الأمم المطلة على المحيطات المتسعة الانجليز والهولنديين والألمان، كما يحدثنا التاريخ أن أمر الكشف الجغرافي والشعوب التي هاجرت إلى أمريكا هم النرويجيون والبرتغاليون والانجليز والفرنسيون والهولنديون وهم من أبناء المحيطات الشاسعة لا البحار الضيقة.

ولا يدحض هذه الحقيقة ظهور كولمبس وأمريجو فسبوتشي Vespucci Alierigo من بحارة إيطاليا الذين قادوا سفن الانجليز والاسبان، لأن طول احتكاك إيطاليا بالشرق واتساع تجارتها معه قد ملأ أفكار ملاحيها أمثال كولمبس بالأفكار والمعلومات الجغرافية التي كانوا يريدون تحقيقها، ومع ذلك فقد كان أفق إيطاليا ضيقًا تحده شواطئ البحر الأبيض المتوسط فلم يمتد بصرها إلى المحيطات البعيدة إلا أخيرًا بعد أن اتسعت دائرة تفكيرها. كذلك كان لاقتصار جنوه والبندقية على أساليب الملاحة في البحار الضيقة أثره في اضمحلالها. بعد كشف الطريق البحري إلى الهند.

غير أن البحار الضيقة ضرورية في تثبيت قواعد الملاحة ونهوضها، وتمهيد الطريق إلى خوض غمار المحيطات الشاسعة، ونظرة واحدة إلى أفريقيا ترينا أنه فما عدا سكان شواطئ البحر الابيض والبحر الاحمر، لم تظهر بها أقوام بحرية كان لها أي أثر في عالم الملاحة، لان شواطئها قليلة التعاريج والبحار الداخلية.

مميزات البحار المحصورة

البحر الأبيض: وهناك ظاهرة هامة خاصة بالبحار المحصورة وهي تميزها بطابع خاص من الحضارة وتشابه شواطئها في كثير من المظاهر كالجنس أو العادات أو الحضارة أو اللغة، فشواطئ البحر الأبيض تقطنها أقوام تنتهي جميعها إلى جنس البحر الابيض الذي يتميز بطول الجمجمة وسمرة البشرة رغم اختلافها في اللغة والقومية، ولذا فالبحر الابيض وحدة تاريخية خاصة، لان سكان شواطئه كانوا على اتصال دائم فقد وصل الفينيقيون إلى شواطئ إسبانيا غربًا كما أن سفن برشلونه وصلت إلى شواطئ الشام وفلسطين شرقاً، كذلك كانت سفن الاغريق تجوب كل شواطئ هذا البحر وجزره حتى الاسكندرية.

بحر الشمال: وإذا انتقلنا إلى بحر الشمال نجد أنه خضع لمثل الظروف التي كانت سائدة في البحر الأبيض إذ كان قديمًا مقسمًا بين الجنس الكلتى **Celtic** في انجلترا غربًا والجرماني شرقًا وما وافي القرن الحادي عشر حتى كان كله تيوتونيا **Teutonic** وما انقضت القرون الوسطى حتى كانت الحضارة التيوتونية سائدة في أرجائه من برجن

Bergin إلى بروجز **Bruges**. كذلك امتدت الأجناس والثقافة التيوتونية إلى بحر البلطيق حتى شواطئ فنلندا وروسيا. وقد كانت سفن الاتحاد المنيسي في هذا البحر تنقل التجارة بين ثغوره حاملة معها أساليب هذه الحضارة وخصائصها.

البحر الأحمر: كذلك امتاز البحر الاحمر بنوع خاص من المدنية العربية التي نقلها العرب بين الأجناس السامية التي تسكن على شاطئه الأفريقي وذلك عن طريق تجارتهم الواسعة بين ثغوره الهامة أمثال زيلع ومصوع وسواكن.

بحر بهرنج: ولو تذكرنا ما عرض لنا عند الكلام على الاسكيمو تبينا أن بحر بهرنج أيضًا بنوع خاص من المدنية المشتركة بين الاسكيمو في شمال كندا وقبائل اليوقاغير والشوكشي في شمال شرق سيبريا وهم جميعًا يتشابهون في الجنس والعادات ولا يعلم بالضبط متى وكيف كانت هجرة أحدهما إلى وطن الآخر.

المحيط الهندي: ولقد لعب المحيط الهندي أيضًا دورًا هامًا في التاريخ البحري إذ كان لضيقه من الشمال أثر في تشجيع بعض الشعوب على احتراف الملاحة فقامت سفن اليمن وعمان بنفس الدور الذي قامت به سفن الفينيقيين في البحر الابيض وكما حملت هذه المدنية المصرية إلى شواطئ البحر الأبيض كذلك نقلت سفن عرب اليمن وعمان الحضارة الاسيوية إلى شاطئ أفريقيا الشرق. وبذلك اقترنت ظروف أسيا بظروف أفريقيا وأصبح للمحيط الهندي مدنية خاصة تمتد من جاوه إلى بلاد الحبشة.

التنافس البحري في التاريخ: ويلاحظ أن كل عصر من عصور التاريخ كان له مسرحه البحري الخاص الذي انتقل منه إلى آخر يلائم ظروفه الجديدة في التاريخ في العصر الثاني، فكان للإغريق بحر أيجه وكان لإيطاليا البحر الأبيض، وكان لغرب أوروبا المحيط الأطلسي أما الآن فلنا المحيط العالمي بأجمها.

البندقية: وقد صحب هذا الانتقال نضال عنيف بين الأمم على سيادة البحار، ففي البدء كانت فينيقيا ملاك شرق البحر الأبيض دون منافس، فلما ظهر الاغريق على مسرح الوجود وكان لهم من طبيعة بلادهم الجبلية حافزا شديدا على التوغل في البحر، زاحموا الفينيقيين وطردوهم من الميدان. ثم كان الصراع بين قرطاجنه وروما في غرب البحر الأبيض، ذلك الذي أدى إلى تغلب روما في الحروب البونية وبذا أصبح البحر الأبيض رومانيا وتمكن أسطول يومبى **Pompey** من طرد قرصان البحر منه ونشرالامن فيه. ولقد كانت البندقية سيدة الادرياتيك **The Queen of the Adriati** في القرن الثالث عشر وكان من حقها تفتيش كل السفن التي تشق عبابه وإلزامها أن تفرغ ثلثي حمولتها في البندقية.

السويد والدانيمرك: وفي الشمال تنافست السويد والدانيمرك على سيادة البحر البلطق السويد ولكن مدن الاتحاد الهنيسي **The Hanse Towns** في ألمانيا ملكت زمام البحر وكان لها حق فرض الضرائب على السفن التي تدخله.

إنجلترا: كذلك كانت انجلترا سيدة بحر الشمال والقنال الانجليزي وخليج بسكاى من سنة ١٢٩٩ حتى سنة ١٨٠٥.

وفي بدء القرن السادس عشر كان المحيط الهندي بحرا برتغاليا كما كان لإسبانيا السيادة على البحر الكاريبي في المحيط الأطلسي غير أن سعة هذه المحيطات لم تكن إحدى الدولتين من السيطرة عليه تماما، وبدخول الدول الأخرى في ميدان الملاحة والاستعمار زالت نظرية الملكية القديمة للبحار وبدأت تحل بدها نظرية حرية البحار Mare liberum التي اعترفت بها انجلترا سنة ١٨٠٥ وبذلك أصبح لكل دولة الآن مياهها الخاصة إلى مسافة ميل بحري واحد من شاطئها، وفيما عدا ذلك فالبحار والمحيطات حرة للجميع على السواء.

أثر البحار في أخلاق السكان

والآن وقد بدت لنا صورة جلية لأنباء البحار في العصور البائدة المختلفة وعرفنا الكثير عن حياتهم وأعمالهم نستطيع أن نبين أثر البحر في أخلاقهم وصفاهم

روح المغامرة: فأول ما يمتاز به سكان الشواطئ البحرية هي روح المغامرة والاستهتار بالأهوال والمصاعب وحب الخاطرة. تلك الروح التي ينفها فيهم البحر الغامض بأمواجه الصاخبة وبقاعه المجهولة.

وقد كان لتأصل هذه الروح في نفوس سكان الشواطئ أثر عظيم في تغيير مجرى التاريخ، بما كان لغزواتهم البحرية من آثار خالدة لا تقل عن غزوات رعاة آسيا البرية.

ونظرة واحدة إلى تاريخ انجلترا في القرن التاسع والعاشر من الميلاد ترينا مبلغ أهمية هذه الغزوات، فقد تعرضت انجلترا في هذا العصر لهجات الاسكندناويين الذين كانوا يسكنون شواطئ النرويج. أولئك الأبطال الذين كانوا يعبرون بحر الشمال بأنوائه وأمواجه المتلاطمة إلى شواطئ انجلترا في سفن طويلة مكشوفة، يسير بنها بمجاذيفهم حتى إذا بلغوا الأرض هاجموا المنازل والأديرة، وسلبوا ما بها ثم نكصوا على أعقابهم واحتواهم البحر إلى بلادهم النائية حيث أثاروا بقصص مخاطراتهم روح الغزو والفتح في قلوب الشعب، نسائه ورجاله فما انقضى القرن التاسع حتى كان أهل الشمال The Norsemnen قد وصلوا إلى البحر الأبيض جنوبًا وأمريكا غربًا والروسيا شرقًا.

ويقول تريفليان Trevelyan المؤرخ الإنجليزي:

"لولا الامتزاج بيننا وبين أهل اسكانديناوه خلال النكبات التي حلت بنا في القرن التاسع، لما رأينا البحرية البريطانية والنشاط التجاري على ما شوهد بعد ذلك من الضخامة والعظمة".

ومن هذا القول نعلم قيمة ما يمتاز به أبناء البحر من صلابة العود والقدرة على مواجهة الأخطار والتغلب عليها.

حب الهجرة: ومن أهم صفات سكان الشواطئ أيضًا حبهم للهجرات والاسفار الطويلة، وذلك لتعودهم ركوب البحر الذي يثير فيهم حب الاستطلاع والرغبة في معرفة المجهول، وقد أدت بهم تلك النزعة إلى حذق التجارة والتفنن في كسب مودة غيرهم من الاقوام. وفي بلادنا

مثل حي لهذا من اليونان الذين يتركون أوطانهم ويستقرون في قرى مصر النائية حيث يشتغلون بالتجارة، وسرعان ما يكسبون مودة الناس وثقتهم ويصبحون في مدة وجيزة من ثراة القوم. وإذا علمنا أن أهل النرويج يشتغلون بصيد الحوت في بحار نيوزيلندا جنوبًا أمكننا تقدير ما يتمتع به هذا الشعب من جرأة عظيمة وحب متأصل للتجوال في أنحاء الأرض.

القدرة على التجارة: فلا عجب إذا إن رأينا الامبراطوريات العظيمة تكاد تكون وقفا على الشعوب البحرية، فها هي انجلترا لا تغيب عن أملاكها الشمس، وها هي هولندا الصغيرة كانت من سادة البحار في القرن السادس عشر، وتمتلك الآن مستعمرات تزيد أضعافا عنها في المساحة والسكان كجزيرة جاوه التي يبلغ عدد سكانها وحدها ٣٧ مليونًا بينما لا يزيد سكان هولندا نفسها عن ٧ مليونًا، وقد أصبح لهولندا على صغرها أسطول تجاري عظيم يعتبر السابع بين اساطيل الدول وتبلغ حمولته ٢ مليونًا من الأطنان. وليس لنا أعظم من اليابان مثلا على همة الشعوب البحرية إذ قد اصبحت هذه الدولة في سنوات قلائل ثالثة الامم البحرية العظيمة ومصدر احترامها ورعبها.

مركز المرأة بين الشعوب البحرية:

تقوم المرأة بين سكان الشواطئ بقسط كبير من العمل، إذ لا يتعدى عمل الرجل صيد الأسماك، فإذا عاد من رحلته بدأ عمل المرأة، فعليها أخذ السمك إلى الاسواق لبيعه، وهي التي تملح الباقي منه وتحفظه ثم تقوم بتصليح الشباك او تجهيزها للصيد. ولما كان من المحتمل أن

يتغيب الرجل في الصيد أياما بل أسابيع كان على المرأة أن تدير شئون منزلها، وتشرف عليه إشرافا دقيقا وتتولى الانفاق بحكمة وتدبر ليكفيها ما معها من نقود حتى يعود زوجها بنصيبه من السمك.

ولذا كان عملها في الواقع أكثر من عمل الرجل وأكثر التصاقا بالمنزل وقد نتج عن ذلك أن أصبح لها مركز ممتاز في البيئة البحرية يتناسب مع ما تحمل من مسئولية، ولذا نجد في النرويج وفنلندا المساواة بين الجنسين **Equality of the sexes** بحيث أصبح التعليم مختلط او أصبح للنساء حق عضوية البرلمان وشغل مختلف الوظائف الحكومية حتى أن سعاة البريد في فنلندا من الفتيات.

ولعل في احترام المرأة في هذه البلاد وتقديرها للمسئولية سر نضوج أفكار الابناء وحبهم للمساواة والحرية واعتمادهم على النفس – تلك الفضائل التي جعلت الشعوب البحرية في مقدمة الدول.

الباب الخامس

قيام الصناعة الحديثة

Rise of Modern Industry

الفصل الأَول
قبل الثورة الصناعية

مرت أمام باصرتنا حتى الآن صور شتى للإنسان في بيئات مختلفة وعصور متعاقبة، ومنها نعلم أن أكبر مستلزمات ذلك الإنسان كانت الحصول على ما يرد عنه غائلة الجوع، وما يقيه تقلبات الطبيعة، وقد كانت يداه أداة العمل، وعلى قوته الجثمانية كانت تتوقف حياته، كما كان الحيوان والأرض مصدر غذائه وملبسه. وكانت الجماعات الإنسانية طوال العصور تعتمد في معيشتها على ما ينتجه أفرادها وأسرها دون الحاجة إلى غيرها Self-sufficing Communities، وبذلك كانت كل جماعة وحدة مستقلة عن العالم الخارجي، ذلك العالم الذي لا تفتقر إليه ولا تعرف عنه القليل أو الكثير، إلا إذا دفع الفصول أو الطمع أو الفاقة إحدى الجماعات الأخرى إلى التعدي عليها للحصول على غذاء أو ملبس.

الطواحين المائية والهوائية: من هذا نري أن قوة الفرد أو الجماعة كانت العامل المسيطر على الانتاج كثرة أو قلة، وبذلك كانت الحياة في أبسط الطواحين أشكالها، ولم يكن للإنسان من مطمع أكثر من الحصول على والهوائية طعامه وملبسه.

ثم جاء عصر وصل فيه الفكر الإنساني إلى استخدام الطواحين المائية والهوائية لطحن غلاته اللازمة لطعامه، تلك الطواحين التي نشاهدها الآن مبعثرة هنا وهناك، فلا تجول في خاطرنا إلا ذكريات الماضي البعيد، ولا نفكر فيها كمصدر قوة محركة ظلت مئات السنين أقصى ما وصل إليه الفكر الإنساني. والحق أن الطاحونة على صغرها وبساطتها ظلت دهورًا طويلة أ كبر أداة للإنتاج تفوق الجهد الجماني، ولقد أدى الوصول إليها إلى ثورة عنيفة في حياة الأفراد والجماعات الذين كانوا يطحنون حبوبهم بأيديهم في ساعات بل في أيام. ولا أدل على أهمية تلك الطواحين المائية أو الهوائية من نشوء مدن كثيرة كانت تعزي شهرتها إلى قربها من إحدى تلك الطواحين.

التجارة: غير أن الإنسان قد ظل بعد ذلك طويلًا يعتمد في عمل ملبسه على يديه ومجهوده الشخصي، فكان يجهز بنفسه جلود الغني والماعز و غزل و برها، ويزرع الكتان و يحيك رداءه، ولذا أعتبر اختراع الأنوال تقدما كبيرا في الحياة الاقتصادية ما أدى إلى تكوين نقابات النسج في القرون الوسطى Weaving Guilds في شمال إيطاليا كما اشتهرت انجلترا بتربية الأغنام و إنتاج أجود أنواع الصوف.

ولم يكن للتجارة وجود بمعناها المعروف للعالم الآن، لأن التجارة إنما تنشأ إذ زاد إنتاج الغلات عن الحاجة في بلد ما، وكان من السهل نقلها إلى بلاد أخرى تفتقر إليها دون صرف كثير من النفقات، غير أن دول العالم قبل مائة عام قلما كانت تنتج أكثر من حاجتها، لضعف

وسائل الانتاج، كما كانت نفقات النقل كبيرة إلى درجة لا تشجع على التصدير حتى إذا كان الانتاج رخيصًا.

ولذا لم يكن للتجارة شأن كبير. وحتى بعد كشف البرتغاليين الطريق الهند البحري، ما كنت ترى إلا سفنًا ضئيلة تجرى تحت رحمة الريح إلى بلاد ثنائية ربما لا تعود منها إلا بعد شهور يقاسي الملاحون والتجار خلالها أهوال البحر الجسام، ولذا كانت السلع المنقولة وأهمها التوابل والبهارات غالية الثمن، ولا يقتنيها إلا ثراة القوم. كذلك كانت الأنهار هي وسائل الاتصال الداخلي بين أجزاء البلد الواحد، لأنه لم يكن في مقدور الناس إنشاء الطرق الصالحة للنقل.

وكان الناس يعيشون في قرى صغيرة متناثرة لا يزيد عدد سكان الواحدة منها على بضع مئات ومثلها ليفربول التي ظلت قرونا لا تحوي أكثر من سبعمائة فرد وقلما كانت هناك ثغور تجارية أو موانئ بحرية، ولم يكن لكل وحدة سياسية إلا مدينة كبيرة تعتبر مركز الحكم والمكان الذي يجتمع فيه المسئولون من الناس لبحث أهم المسائل الاجتماعية أو وسائل الدفاع عن الإقليم.

وقد ظل هذا النظام **Manorial System** سائدة في أوروبا قرونا طويلة، وظل الناس يولدون ويموتون في عالم يعتمد في كيانه على الزراعة والرعي والقوة الجثمانية فقط حتى جاء أكبر حادث في تاريخ البشرية وهو الانقلاب الصناعي.

الفصل الثاني
الانقلاب الصناعي في إنجلترا

في عصر يوم من أيام الربيع في سنة ١٧٦٥ بينما كان جيمس وات James Watt البالغ من العمر تسعة وعشرين عامًا يسير بين الحقول يفكر في قوة البخار، تلك المسألة التي شغلت مخيلته الأيام والليالي، إذا به يتوصل إلى حل تلك المعضلة، ويصبح في مقدوره أن يستخدم البخار كقوة محركة في الصناعة.

وما انقضت سنة ١٨٠٠ حتى كانت الآلة تستخدم في المناجم ومصانع الورق والنسيج. وكانت أعمدة الدخان المتصاعدة من آلاف المداخن في كل الأنحاء تعلن املا انتصار الصناعة وعظمة الفكر الإنساني وبدء عصر جديد في تاريخ البشرية. وإذا كان لفرد أن يفخر بأنه مؤسس المدنية الحديثة فأنه جيمس وات.

وقد كان من الطبيعي أن تكون انجلترا هي مهد الصناعة ومسرح هذا التطور الفجائي من حالة الزراعة والرعي في القرى Manorial System إلى حالة التعدين والصناعة في المدن، لأنها غنية بالفحم في أغلب أنحائها، كما أن مناجمها قريبة من شاطئ البحر، كما في نيوكاسل بحيث يسهل نقله إلى سائر جهاتها عن طريق الماء، كما أن الكثير من مناجم الحديد، وجاءت قريبة من مناجم الفحم، لذا كان التطور الصناعي

بها أسبق منه في غيرها من دول أوروبا. وقد ساعد على ذلك أيضا عدم انشغالها طويلا في حروب نابليون التي شملت أوروبا إلى سنة ١٨١٥ فلم تتح لدولها الفرصة للاشتغال بالصناعة، بل كانت تعتمد كثيرًا على انجلترا في استيراد ملابس الجنود والأسلحة.

وبظهور الصناعة في انجلترا والخطوات السريعة التي سارت بها، تغيرت الحياة الاجتماعية بها تغير محسوسة، وكانت طائفة العال أكبر طوائف الهيئة الاجتماعية تأثر بهذا التغير والتطور.

هجرة القرية وقيام المدن: وقد استلزم الاشتغال بالصناعة أن تقوم المصانع والمعامل حول حقول الفحم، لأنه المولد للقوى المحركة، وبذلك قامت المدن الصناعية في أنحاء انجلترا، واجتذبت إليها من كل الأنحاء جمهور العمال الذين هر مهم الاجور المرتفعة التي كان يدفعها أصحاب المعامل والمصانع، وقد كان من نتيجة ذلك أن خلت القرى الهادئة الجميلة من أغلب سكانها الذين نزحوا في جماعات إلى المدن فتفككت روابط الأسرة وساد على القرى شبح الوحشة والجفاء وردد الشعراء صدى تلك التعاسة في أشعارهم، فهذا «شلى» بعواطفه الإنسانية، وذاك «وردزورث» التقى الورع، و«بيرون» الملتهب العاطفة، «وسكوت» صاحب الخيال الرائع، قد قاموا يندددون بالصناعة ويحبذون الرجوع إلى الخلوات والفضاء المتسع حيت يتمثل جمال الطبيعة، حيث الهدوء والسكون.

حالة الأجير: ترك الناس حقولهم ومنازلهم الريفية البسيطة ونزحوا إلى المدن ففقدوا بذلك شخصيهم وحريتهم، وأصبحوا وحدات في مصانع كبيرة، لا يفرق أصحابها كثيرة بينهم وبين الآلات التي يلاحظونها وأصدق تصوير لحالة العامل الأجير Proletariat التي آل اليها بعد اشتغاله بالصناعة ما قاله «ورنر سمبارت» Warner Sombart «الأجير هو ذلك الشخص الذي انقطعت صلته بالطبيعة، فهو لا يفقه لحركات السحب في السماء معنى، ولا يهزه صوت العواصف وليس له وطن أو مستقر. أمستطيع هو أن يشعر بأمان المنزل وراحته في أبنية المدينة الشامخة المتلاصقة المزدحمة؟ إنه دام التنقل من منزل إلى آخر، ومن مدينة إلى أخرى كيفا تناديه الرأسمالية الغاشمة. أصبح شاردا هائما على وجه الأرض، وأصبح نداء الطبيعة غريبة على سمعه وجمالها غريبًا على بصره الذي أعمته المادية القاتلة، ولم يعد الأغلب أفراد الشعب ما يفخرون بامتلاكه. كان لا فقر الناس فيما مضى قطعة من الأرض تقوم في وسطها عشة ويرعى في حقولها الخضراء بعض الحيوان وهذا المتاع على ضالته كان يوحى إليه معنى الاستقرار، أما اليوم فكل ما يمتلك لا يملا عربة نقل صغيرة، وهذا ما تبقى له من حطام الدنيا.

لقد سحقت الرأسمالية بأقدامها الحديدية كل شعور نبيل للاجتماع، وبذلك تقلص ظل الحياة في القرية، وأصبح العامل الأجير مخلوقًا بائسًا».

والحق أن العامل في ذلك الجو الصناعي المكفهر أصبح لا ينظر إليه كمخلوق له حريته وحقوقه الخاصة، بل كان يعتبر قوة محركة كالفحم أو آلة من آلات المصنع، وكان التشريع القانوني يحد من حريته الشخصية بدلا من أن يكفلها له، ففي سنة ١٧١٩ صدر قانون يحرم عليه الاشتغال في أقطار أخرى، وفي نهاية القرن الثامن عشر صدر قانون يمنع العمال من التضامن والمطالبة برفع أجورهم، وتخول للضابط القضائي أن يحكم بالسجن ثلاثة أشهر على كل من حاول إثارة ضجة أو حرض على الاضراب أو طالب بتحسين أحوال العمال. وهكذا أصبح العامل الانجليزي في ذلك الوقت محروما من التعليم والحقوق السياسية على السواء.

ومن النشرة التالية التي ص درت أثناء إضراب من الاضرابات يتبين سوء حالة العمال.

«إنهم يشتغلون أربع عشر ساعة في اليوم الواحد، بما في ذلك ساعة واحدة للغذاء، وكان رتاج الباب محكما طوال هذه الساعات، ما خلا نصف ساعة عند الساعة الخامسة للشاي ولم يكن يرخص للعمال أن يطلبوا الماء أثناء العمل، وأنهم السعداء أن يرشفوا بعض قطرات من ماء المطر، لولا أنه أيضًا محظور عليهم بأمر سيدهم».

وكان العامل يدفع شلنا كغرامة إذا وجد قذرًا أو سمع له صفير أو فتح النافذة. وهكذا تضافرت كل العوامل على تحويل الإنسان إلى مخلوق آلي ليس له شعور، فالقوانين الحكومية القاسية، والمدن

المزدحمة المظلمة، وانعدام حرية الاختيار، والجو المكهرب، كل ذلك نزل بالإنسان إلى مستوى الحيوان.

قال أحد النقاد في هذا الصدد:

"تدور الآلة والعمال دائبون على العمل، فالرجال والنساء والأطفال يرزحون جميعًا تحت نير الحديد والبخار. والإنسان والآلة صنوان لا يفترقان، أو هما آلتان لا تختلفان، يؤلف بينهما المصنع في غير شفقة أو رحمة، رغم أن الأولى – وهي الإنسان من لحم ودم، سريعة الاستجابة لشتى المؤثرات، معرضة المختلف الأحاسيس، والثانية من حديد وصلب، لا تتأثر ولا يدركها التعب".

فلا عجب والحالة هذه إذا سئم العمال حياتهم وخرجوا بعد أوقات العمل الممض إلى الخانات يحتسون الخمر لينسوا آلام الحياة. ولا عجب أن يصبح العامل شرسا فظ الطباع قد انحطت فيه كل الغرائز الإنسانية وأصبح متوحشًا **Brutalised** لا يرد تحية ولا يبتسم حتى لأبنائه!

وقد زاد هذه الحالة سوءًا أن العمال أصبحوا لا يجدون لذة في عملهم، لأن من مستلزمات الصناعة الحديثة تقسيم العمل **Division of Labour**، وبذلك أصبح العامل الواحد يكاف بأداء نوع خاص من العمل طول حياته تقريبا، وبذلك اقتصر عقله ومرانه على ناحية واحدة من النشاط وركدت فيه القوى الأخرى واضطرته هذه الحالة إلى الخضوع لأصحاب المال خوفا من تعطله إذا طرد لأنه لا يصلح لعمل آخر.

وقد كان من اللازم لتخفيف وطأة هذا الجفاف في حياة العامل اليومية أن تقوم الهيئات المسئولة بنشر الثقافة العامة، ووسائل التسلية بين العمال في أوقات فراغهم، كالإكثار من المحاضرات العامة، ودور الملاهي والمتاحف والحدائق العامة والألعاب الرياضية، غير أن العقول المفكرة في ذلك الوقت كانت تعارض كل أنظمة يقصد بها تثقيف العمال، إذ كان المعتقد أن زيادة الإنتاج تتطلب إطالة ساعات العمل وتجريد الحياة من وسائل التسلية، والحد من حرية التفكير في الماضي أو المستقبل.

قال أحد النقاد في وصف حياة المال:

"اعتبرت رياضتهم جريمة وانقلبت أيام عطلتهم إلى أيام صوم" ولم يكن للتعليم نصيب من عناية الحكومة حتى أن إحدى مقاطعات لانكاشير وسكانها يزيدون عن مائة ألف لم يكن بها حتى سنة ١٨٣٩ مدرسة واحدة لتعليم الفقراء، كما أن نسبة الذكور المتعلمين في ويلز الجنوبية سنة ١٨٠٢ لم تزد عن إثنين في المائة، وحتى عندما بدأ المسئولون يولون التعليم نصيبًا من عنايتهم كان همهم الأول من وراء ذلك الوصول إلى زيادة إنتاج الأطفال لا إلى توسيع مداركهم أو توفير أسباب السعادة لهم.

وهكذا كانت المنفعة هي محور تفكير انجلترا في ذلك العصر، وبذلك أصبح دخان المدن الكثيف ومناجمها المظلمة والفوضى الغالية عليها والجهل الخير على سكانها واليأس القاتل المفعمة به قلوب

الصغار والكبار من أهلها، كل ذلك كان ينظر إليه كمظهر من مظاهر الكسب ووسيلة ناجعة للإنتاج....! ومدن هذه صورتها لم تكن مأوى يجد فيه الإنسان الجمال أو السعادة أو الثقافة أو الدين، أو أي مؤثر من مؤشرات المدنية الحقة، بل بقاعا عارية جرداء لا حسن فيها ولا ابتسام، أمكنة يعمل فيها الرجال والنساء والأطفال طيلة يومهم ثم يأكلون وينامون. كان هذا مصير الطبقة العاملة وأسلوب حياتهم الذي لا يتغير. وهكذا كانت المصانع والمعامل أكثر شيها بالأهرام المصرية دليلا على استعباد الإنسان لأخيه قبل أن تكون مظهرا من مظاهر قوته ونبوغه.

استخدام الأطفال في الصناعة: على أن أسوأ نتائج الاشتغال بالصناعة كان استخدام المعامل مدة لا تقل عن أربع عشرة ساعة في اليوم.

ولقد اندفع أصحاب المال وراء جشعهم وحبهم للمادة، فتمادوا في هذا النوع من (الاسترقاق) حتى أصبح استخدام الأطفال في الصناعة من القواعد المرعية التي يحبذها ويدافع عنها رجال الحكومة، يدلنا على ذلك ما قاله **Pit** الوزير الإنجليزي في هذا الصدد، عندما كان يعارض في سن قانون «الحد الأدنى للأجور» في مجلس العموم في ١٢ فبراير سنة ١٧٩٦ قال:

«لقد علمتنا التجارب العملية مبلغ ما يمكن الحصول عليه من فائدة من استخدام الأطفال في الصناعة، ومزايا التبكير في تكليفهم بصنع ما يمكنهم اتقانه بالطبيعة».

وعشية وراء هذه القواعد والأنظمة كانت الملاجئ الدينية الفقراء Parishes تشترط عند قبولها مساعدة أحد المحتاجين أن يقدم أطفاله إلى الملاجئ لإرسالهم إلى أصحاب المصانع في لانكاشير ويوركشير حيث يقبرون هناك إلى الأبد، ويحرمون عطف الآباء ونعمة الأسرة. ومن سخرية القدر أن يدافع المسئولون عن هذا النظام دفاعًا غريبًا في منطقه، يدل على انعدام روح العطف بين الناس في ذلك الوقت، ويرينا مبلغ تقدير الهيئة الاجتماعية الفقراء من الناس.

قال مستر ورتلي في مجلس العموم سنة ١٨١١ «إن من أجمل الفضائل أن نبذر بذور المحبة بين الأطفال وآبائهم في الاسر الراقية، كما أنه من صالح الأطفال في الأسر الفقيرة الوضيعة أن نحول بينهم وبين آبائهم التعساء».

وقال أيضا في وجوب استخدام الأطفال في الصناعة:

«إنه من الخطر على الجمهور أن منع الأطفال من الاشتغال في الصناعة إذ بذلك ترتفع الأجور ويتبع ذلك ارتفاع أثمان البضائع» كان هؤلاء الأطفال التعساء يسمون «أطفال السخرة» Free–labour Children يدخلون المصنع في الساعة السادسة صباحًا ويتركونه في الساعة الثامنة مساء، وليس لهم الا نصف ساعة للإفطار وساعة لتناول الغذاء، وكثيرا ما كانوا يكافون بتنظيف الآلات أثناء هذه الفترات. وقد قدر أن الطفل يسير عشرين ميلا في اثنتي عشرة ساعة حول آلة الغزل ليجمع بقايا القطن المنثور فوق الأرض.

وقد قال أحد كبار تجار الرقيق في ذلك العصر عندما شاهد هذه القسوة في معاملة الاطفال:

«كثيرا ما استولى على شعور الاستياء والنفور عندما أذكر أني تاجر رقيق. ولكننا في جزائر الهند الغربية. موطن الرقيق. لم يدر بخلدنا يومًا أن تجمد الشفقة في الإنسان وتنتهي به القسوة فيستخدم طفلا في التاسعة من عمره لمدة لا تقل عن اثنتي عشرة ساعة في اليوم».

وقد قام كثير من المصلحين يهاجمون هذا النظام في النصف الأول من القرن التاسع عشر حتى سن قانون في سنة ١٨٤٧ حدد ساعات العمل لمن بين التاسعة والثامنة عشر بعشرة ساعات في اليوم.

اشتغال النساء بالصناعة: على أن نصيب النساء من شرور الصناعة لم يكن بأقل من نصيب الرجال أو الأطفال، فقد تركوا منازلهن الصغيرة واندمجوا في السلك الصناعي فأحنين رؤوسهن الرقيقة لنير الاستعباد وبدخولهن في هذا المضمار كعنصر جديد، قامت المنافسة بينهن وبين الرجال، وأصابهن ما أصاب الرجال من تدهور في الصعية وانغمسن في الرذائل، فارتدن الحانات واحسين الخمر ورفعن عن وجوههن قناع الحياء.

وبذلك تقوضت الأسرة ووهن النظام الاجتماعي وأصبح الأفراد بعيدين عن بعضهم لا يحسون بالعطف ولا يقدرون الارتباط العائلي، واجتاحتهم المادية وأصبحوا آلات جامدة للإنتاج.

الرأسماليون

نترك الآن الطبقة العاملة إلى طبقة أخرى جديدة أظهرتها الصناعة – تلك هي طبقة أصحاب رءوس الأموال **Capitalists** فقد كان من الطبيعي أن يستلزم استخراج المعادن من المناجم وبناء المصانع والمعامل رءوس أموال ضخمة، قام باستغلالها أفراد مغامرون يتميزون بتحكيم عقولهم في أعمالهم، ونبذ العاطفة وراء ظهورهم، أولئك هم الممولون الذين ميزتهم الصناعة كطبقة طاغية غاشمة، فتحكموا في كل مظهر من مظاهر الحياة وأصبح بيدهم مقاليد الأمور في ذلك الوقت، وكادوا يتمتعون بحق إلى كحق ملوك انجلترا الآلهي في عصر أسرة الاستيورات **Divine Right of Kings**.

ولم يكن لهؤلاء مطمع في الحياة أكثر من الربح والنفع المادي ولذا لم يتورعوا عن سلوك كل السبل التي توصلهم إلى هذه الغاية، وقد عرفنا مبلغ استهتارهم بالعواطف الإنسانية ونكر انهم لحقوق عامة الشعب الممثل في معاملتهم المروعة للعيال، من أطفال ونساء ورجال.

تلك المعاملة القاسية التي أثارت في نفوس العيال الحقد الدفين والبعض المتأصل الذي أدى بمرور الوقت إلى ظهور أفكار الاشتراكية **Socialism** بين العمال.

وسنجمل هنا شيئًا عن مبادئ الاشتراكية:

الاشتراكية SOCIALISN

(أولًا) تعتبر الاشتراكية النظام الاجتماعي الحالي نظاما فاسدا لأنه يخول الممولين وهم الأقلية من الناس حق استغلال العمال – وهم الأكثرية – لنفعهم الخاص وبذلك يرى الاشتراكيون إيجاد نظام جديد لا تكون الملكية فيه وسيلة للدخل باستغلال العال، وهم في ذلك فئات مختلفة فمنهم «الشيوعية» **Communist School** التي ترى عدم الاعتراف بأي أملاك خاصة للأفراد «والاشتراكية الجمعية» **Collectivism** التي ترى مصادرة الأملاك التي تتطلب استخدام العمال فقط كالصانع ثم «اشتراكية الأرض» **Socialism Agrarian** التي ترمي إلى مصادرة الأراضي فقط باعتبارها المصدر الطبيعي للثروة وأخيرا «الاشتراكية التعاونية» **Co-operative School** التي ترى منع الربح دون التعرض للأملاك الخاصة.

(ثانيًا) تتفق كل هذه المذاهب الاشتراكية في أن الثورات من أهم وسائل قلب الأنظمة الاجتماعية القديمة وإحلال الأنظمة الجديدة مكانتها ويقولون في ذلك:

«إن صغار الطيور لا تخرج من البيض إلا بعد تحطيمه كما إن كل تطور جديد هو في ذاته ثورة على القديم في وجه من الوجوه – وإذا ما تأهبت الإذاعة الحديثة للخروج عن أوضاع القرون، وخلع نير التقاليد فليس إلا العنف والهدم وسيلة فذة لهذا الانقلاب»

(ثالثًا) تربي الاشتراكية إلى استغلال كل الأملاك الخاصة لمصلحة الشعب دون الأخذ بنظام الأرباح على أن تكون اللجان المكلفة بتنفيذ هذا النظام اقتصادية وليست سياسية وبعبارة أدق تكون أشبه بمجالس تنفيذية، لجمعية تعاونية هائلة تنتظم مرافق البلاد بأكملها، ويسمى هذا النظام «تعميم الاستغلال» "**Socialization**" أو "**Nationalization**".

(رابعًا) ترى الاشتراكية أن مصالح أصحاب الثروات تتعارض مع مصالح العال وعلى ذلك يجب القضاء على الطائفة الأولى، وقد نضج هذا النوع من الاشتراكية في مذهب جديد يسمى **Syndicalism** ومعناها «الاشتراكية الطائفية»، التي لا تقبل في عضوية جمعياتها إلا العال، وأهم مبادئها الحصول على مطالب العمال بواسطة الاضراب وإلغاء نظام الأجور بحيث تقوم هيئات من العمال أنفسهم بعمليات الانتاج والتوزيع، ويستأثرون بالأرباح دون الممولين.

تسربت أمثال هذه الآراء ولا تزال تتسرب إلى أذهان العمال لأنهم يرون أمامهم صورة مختلفة من طبقات الممولين الذين يصلون إلى ذروة الثروة والمجد على أكتافهم بينما يظلون هم دام أدوات بائسة تعمل جاهدة دون أمل لمجد طفيليات من الممولين.

ومما لا جدال فيه أن أمثال تاك الفروق بين الفقراء والاغنياء كانت موجودة في العصور السابقة، وإنا لنراها واضحة إذا ما قارنا حالة العبد **Serf** بحالة البارون الاقطاعي **Feudal Baron**، غير أن الهوة بين الاثنين لم تبلغ من العمق والاتساع يوما ما بلغته بعد الثورة الصناعية بين الأجير وصاحب المصنع ذي الملايين، كما أن حياة العبد في القرية

الزراعية لم تكن مظلمة تعسة كحياة العامل في المصنع والمنجم، فأنذاك كان على الاقل يتمتع بالطبيعة ويشعر في ذلك بشيء من المساواة بينه وبين سيده اللورد.

غير أن ذلك الصراع الشديد بين الرأسمالية و الطبقة العاملة وما صحبه من حوادث القسوة والظلم من الجانب الأول والثورة والعنف من الجانب الثاني، قد كان له أثره في إيجاد أنظمة جديدة في الحياة الصناعية، فقامت الحكومة بسن قوانين مختلفة للمصانع Factory Acts تخول لمندوبيها في أي وقت حق تفتيش هذه المصانع للوقوف على حالتها الداخلية، وكيفية معاملة أصحابها للعيان، وكتابة تقارير وافية عن العيوب التي يرونها وطرق علاجها و بذلك بدأت رءوس الاصلاح الاجتماعي تظهر فوق دخان المصانع الكثيف، وبدأت مصالح العمال وشئونهم تشغل بال المفكرين والمصلحين من رجال الأمة أمثال بنثام Bentham وجلادستون من بعده.

كذلك قام العمال من جانبهم بجهود جبارة لتكوين النقابات التي تحمي مصالحهم الاجتماعية والاقتصادية، وقد نجحوا في الحصول على اعتراف رسمي بهذه النقابات. Trade Unions في سنة ١٨٧١، وهي تسعى إلى تحقيق الأغراض الآتية:

(أولًا) المساومة الجمعية على الأجور بدل المساومة الفردية.

(ثانيًا) وضع حد أدنى للأجور وحد أعلى الساعات العمل اليومي.

(ثالثًا) تسوية الخلافات التي تنشأ بين العمال وأصحاب رءوس الأموال بالطرق السلمية والتحكيم Arbitration Conciliation and.

(رابعًا) المطالبة بتوفير أسباب الصحة والراحة والسلامة في العمل.

(خامسًا) المطالبة بالتأمين الاجتماعي ضد المرض والحوادث وكبار السن والتعطل.

(سادسًا) وضع التشريع الذي يكفل تنفيذ أغراض نقابات العمال.

شروط الصناعة

عرفنا الظروف التي أدت إلى قيام الصناعة بمعناها الحقيقي وظهر لنا ما صحب الصناعة من شرور اجتماعية نجملها فيما يأتي:

(أولًا) **هجرة القرى وفساد المدن**: هجر الناس القرى إلى المدن التي أصبحت تضيق بهم فتقاربت منازلها وضاقت طرقاتها، وحرمت الهواء وأشعة الشمس وخلت أغلبها من الحدائق والمتنزهات العامة، وانتشر فيها دخان المصانع فكسا جدران المنازل بطبقات سوداء من الدخان حتى أصبحت الحياة فيها أشبه بمعيشة السجون، وانتشرت الأمراض المعدية والحميات بين السكان البؤساء حتى كانت نسبة الوفيات في مانشستر سنة ١٧٥٧ حسب تقدير دكتور پرسيفال Dr. Percival ١ : ٢٥، وفي ليفربول ١ : ٢٧، بينما كانت النسبة في بلدة مونتون Monton التي تبعد قليلًا عن مانشستر ١ :٦٨ وذلك لأنها بعيدة عن الجو الصناعي.

ولم يقتصر فساد الجو على المدن الصناعية نفسها، بل كان دخان المصانع وقاذورات الصناعة تفسد الجو والقنوات المائية وتهلك النبت إلى مسافة أميال من كل ناحية.

(ثانيًا) **تشغيل الأطفال**: اندمج الأطفال في سلك الصناعة فأهمل تعليمهم وساءت صحهم وكان نسلهم في المستقبل ضعيفا وقد دل الاحصاء أثناء الحرب العظمى أن نصف العمال لا يصلحون للخدمة العسكرية.

(ثالثًا) **تشغيل النساء**: ترك النساء منازلهن واشتغلن في الصناعة فنافسن الرجال وسببن تعطل الكثير منهم كما نجم من تركهن للمنازل وتمتعهن بالحرية الواسعة وارتيادهن أماكن اللهو والحانات، تدهور الأخلاق من هذه الناحية، بحيث لم يصبح للعفة تقدير كبير في المدن الصناعية.

(رابعًا) **ظهور الرأسماليين**: ظهرت طبقة اجتماعية جديدة هي طبقة أصحاب رؤوس الأموال، فاستبدت بالعمال، ولم يكن لها غاية إلا الحصول على الربح، وسلكت لذلك كل السبل مشروعة وغير مشروعة.

(خامسًا) **ظهور مبادئ الاشتراكية**: نشأ عن وجود الغني الهائل إلى جوار الفقر الاشتراكية المدقع امتلاء قلوب العمال بالحقد والضغينة للممولين، وبدت لهم في صورة مجسمة سوآت توزيع الثروة ذلك التوزيع غير العادل Inequality of wealth فتسربت إليهم أفكار الاشتراكية المتطرفة.

ولجأوا في الكثير من الأحيان إلى الاضراب Strike ووسائل العنف للحصول على مطالبهم. ولا يخفى ما في هذا من الإضرار

بالمصلحة العامة. ولنا في إضراب عمال باريس في شهر يوليو سنة ١٩٣٩ مثل ذلك.

(سادسًا) **تفكك روابط الأسرة**: نتج من كل هذا تفكك روابط الأسرة، وانعدام العطف بين الأفراد. ويلاحظ هذا بجلاء كل من زار انجلترا، إذ يرى أفراد الأسرة الواحدة منشورين في أماكن مختلفة وأقطار متباعدة، ولا يتردد الشاب أو الفتاة في ترك منزل والديه بمجرد استطاعت الحصول على الرزق.

حسنات الصناعة

تعددت الشرور الاجتماعية في البيئة الصناعية إلى حد جعلت البعض يطلق عليها اسم «المجتمع المريض»، إلا أنها لا تخلو من حسنات كادت تربو على سيئاتها. تلك الحسنات التي تميز العصر المتمدين الحالي عما سبقه من عصور.

كثرة الإنتاج: فأول ما قدمته الصناعة للإنسانية، أنها أنتجت لعامة الشعب والفقراء من الناس كل ما يدخل في دقائق حياتهم اليومية، لأن من مظاهر الصناعة الحديثة بل من مستلزماتها الانتاج بالجملة Large Scale Production، الذي يتبعه في أغلب الأحيان رخص أسعار السلع بحيث أصبح الفقير الآن يتمتع بأشياء كثيرة لم يكن في مقدور أشراف القوم في العصور المتوسطة أن ينالوها، وقد تنجم عن كثرة الانتاج من ناحية وكثرة الاستهلاك من الناحية الأخرى زيادة ثروة الأمم الصناعية، ولا ننسى إذا ذكرنا الأن انجلترا وألمانيا والولايات المتحدة أنها في مقدمة دول العالم ثروة ونفوذًا، وما كان في مقدورها أن تصل إلى

هذه الذروة إلا باشتغالها بالصناعة والسعي إلى ترويج منتجاتها الصناعية في أسواق العالم البعيدة.

الاختراع والابتكار: والصناعة كانت ولا تزال أكبر حافز على الابتكار والاختراع. وها هي عشش العمال في البلدان الصناعية مضاءة بالكهرباء، ويرن بين جدرانها المتقاربة صوت المذياع ينقل إلى فقراء القوم أخبار الأمم، وها هي دور الحياة مليئة كل ليلة بروادها من الأغنياء والفقراء على السواء. هذه المخترعات وأمثالها وليدة البيئات الصناعية، ومن إنتاج أفكار علمائها. غير أنها للأسف سلاح ذو حدين قد يستعمل لخير البشرية كما قد يستخدم في إهلاكها. وليس أدل على ذلك من أن علماء الكيمياء الألمان كانوا يحولون قشور الأشجار المتساقطة إلى خبز يأكله الناس أثناء الحرب العظمي. كما أن هؤلاء العلماء أنفسهم أخرجوا للعالم الغازات الخانقة التي أفنت الجيوش وأهلكت المدن.

القضاء على نظام الطبقات: وثم حسنة أخري أسدتها الصناعة إلى الهيئة الاجتماعية، تلك هي قضاؤها على نظام الطبقات الاجتماعية، الذي كان يضع الحواجز بين فئات الناس، فيبقى العبد عبدًا والعامل عاملًا والسيد سيدًا، وهكذا كان ميلاد الإنسان يشكل مصيره، فقد أدت الصناعة إلى السعي وراء المادة واعتبارها مقياس أهمية الفرد، وبذلك أصبح في إمكان الصانع أن يصير سيدا إذا أعمل فكره وبذل مجهودا كافيا. وهذا فورد ملاك السيارات قد بدأ حياته عاملا بسيطا لا يتميز عن غيره، مه ساقه الحظ إلى ما يتمتع به الآن من مركز اجتماعي يحسده عليه الأمراء.

وقد نتج من هذا التطور في النظام الاجتماعي أن أصبح الناس يقدرون الأشخاص النابغين بغض النظر عن نشأتهم، أمثال هتلر في ألمانيا، وماكدونالد في انجلترا وموسوليني في إيطاليا، أولئك الناس الذين ما كان باستطاعتهم أن يثبتوا وجودهم أو يصلوا إلى مراكزهم العظيمة لو أنهم ظهروا في عصور ماضية سادت فيها الحواجز الاجتماعية بين الطبقات.

احترام الرأي العام: ومن أظهر مميزات البيئة الصناعية أيضا احترام الرأي العام وسرعة تكونه. لأن الصناعة إنما تقوم على أكتاف عامة الشعب، وهؤلاء قد تنبهوا إلى أهمية مركزهم، فقاموا بحملات شعواء على الحكومات وأصحاب رءوس الأموال في الدول المختلفة، وكونوا لأنفسهم اتحادات تميزهم وتدافع عن مصلحتهم، فأجبروا الهيئات المسئولة على الاعتراف بأهميتهم واحترامهم والسعي إلى المحافظة على حقوقهم. ولا أدل على احترام الطبقة المتوسطة والفقيرة في لندن من أن السيارات العامة والقاطرات الأرضية كلها درجة واحدة ولا يتميز فيها العظيم على الحقير.

حرية الرأي: وكانت حرية الرأي الشخصي نتيجة مباشرة لاحترام الرأي العام. وأن الداخل إلى حديقة هيد بارك في وسط لندن ليدهش الصراحة المتناهية التي يتناول بها الخطباء الموضوعات السياسية والاجتماعية والدينية وغيرها. تلك الصراحة التي تعتبر في بلاد أخرى جريمة ترسل صاحبها إلى السجن شهور وسنوات. فلا عجب بعد كل هذا إذا نضج الرأي العام وقويت المعارضة الحقيقية في مجالس النواب،

واصبحت الموضوعات الاجتماعية الخطيرة التي تهم الشعب تلقى من النقد البريء ما يصلحها ويوجهها إلى المصلحة العامة.

التربية: وقد كان لوهن الرابطة العائلية أثرها الفعال في التربية الاستقلالية التي ينشأ عليها الأبناء منذ نعومة أظفارهم، تلك التربية التي تجعل من الشاب رجلا كاملا يعيش في أية بقعة من الأرض معتمدة على نفسه الاعتماد كله، كما جعلت من الفتاة أما محترمة تلقن أبناءها القومية الحقة وتنشئهم نشأة محترمة مستقلة.

جلست مرة مع أم إنجليزية وطفلها، فأبى الولد هفوة من الهفوات الصغيرة التي قد تمر بيننا دون ملاحظة، ولكن تلك الأم الحازمة اليقظة أنبته على فعلته هذه قائلة «ألا تخشى أن يقول ضيفنا هذا بعد رجوعه إلى بلاده إن أطفال الانجليز تنقصهم التربية؟» وهذا مثل البسيط من أمثلة اعتزازه بقوميتهم واحترامهم لبلادهم.

ولعل النجاح في الاستعمار من أكبر نتائج هذه التربية. فأنت ترى الرجل الإنجليزي يهجر بلاده إلى أقصى بقاع الدنيا التي تختلف كل الاختلاف عن بلاده في مناخها ومدنيتها وسرعان ما يكون له بيئة انجليزية محضة، ويعيش عيشة رغدة، ويوجه جهوده إلى خدمة بلاده وتوطيد مركزها، وربما قضى حياته هو وذريته في هذه البقعة راضيا قانعا مغتبطا بأنه إنما يعمل لخدمة بلاده. قال نلسون القائد الانجليزي البحري:

«إن إنجلترا لترجو من كل إنجليزي أن يؤدي واجبه».

مركز المرأة في البيئة الصناعية:

قدمنا أن خروج المرأة إلى ميدان العمل كان أثر من آثار الثورة

الصناعية، وقد أدى ذلك إلى ظهور شخصيه او ارتفاع مركزها في الهيئة الاجتماعية. لأن المرأة إذا عملت وأمكنها الانفاق على نفسها، بدأت تستقل عن الرجل. وتشعر بوجودها وتضطر الرجل إلى الخفض من نفوذه ورقابته عليها، وبذلك تنال من الحرية ما لا يُمكن أن تناله أختها التي لم تخرج إلى ميدان العمل بصفة جدية ولا تزال تعتمد على الرجل في الانفاق.

ومن الطبيعي أن المرأة إذا شعرت بأنها تقوم بأعمال الرجال على الوجه المرضي، وأنها تؤدي لبلادها نفس الخدمات، قامت تطالب بنفس الحقوق التي يتمتع بها الرجال، ولذا نجد النساء في انجلترا وفرنسا والولايات المتحدة قد الفن الجمعيات المختلفة للمطالبة بحقوقهن في وظائف الحكومة ومجالس النواب والقضاء، وقد أمكن نيل كثير من هذه المطالب، وساعدهن على ذلك ما قمن به أثناء الحرب العظمى من أعمال شاقة أثبتن فيها جدارة وقن بها دون تقصير،، وقد تسربت مبادئ مساواة المرأة بالرجل من الدول الصناعية إلى ما جاورها من الدول الأخرى، وأصبح للنساء بها شأن كبير أيضا.

والواقع أن الناظر إلى صور فتيات إسبانيا وهن يحملن السلاح للدفاع عن بلادهن كالرجال سواء بسواء، لا يتردد في الموافقة على إعطاء المرأة كل حقوقها التي هضمها الرجال طويلا بدافع الأنانية.

غير أن الحرية الكاملة التي يتمتع بها النساء في البيئات الصناعية، واعتبارهن مسئولات عن أنفسهن، وانعدام الرقابة المنزلية عليهن كان له أثره في انحلال العفة عندهن، وقد قلت. انحلال العفة، ولم أقل انحلال الأخلاق لأن فتيات الإنجليز يتمتعن بخلق عال في نواح أخرى أهمها الانتصار لقوميتهن وتقدير الواجب حق قدره.

وللقوم فلسفة خاصة يفسرون بها هذا النوع من الاباحية، إذ يقولون ألا ضرر مطلقًا من تمتع الفتاة بكل الحرية التي يتمتع بها الشاب، ما دام الأثنان يقومان بنفس العمل، وما داما يؤديان الواجب عليهما حق الأداء. غير أننا بتقريرنا لهذه الحقائق الواقعة لا ننتصر لها، لان التقاليد الشرقية المتغلغلة في نفوسنا لا تسمح لنا بذلك، غير أننا نقول إن البيئات الشرقية لا تخلو من بعض هذا النوع من الانحلال، ولكنه انحلال مستر، ربما كان أخطر من الأول وأعظم أثر وأسوأ عاقبة.

وقد انعكست الحرية التي تتمتع بها المرأة الانجليزية في أبنائها فألفوها وشبوا عليها وقدروها تقديرًا كاملًا وتمتعوا بها فكونوا في النهاية شعبًا حرًا عظيمًا.

الباب السادس

الأقاليم المناخية

Climatic Regions

الأقاليم المناخية

ينقسم العالم من الوجهة المناخية إلى أقاليم عدة، لكل منها مميزاته الخاصة من حيث الظواهر المناخية والنبات والحيوان، وهي التي بدورها تشكل حياة الإنسان في كل إقليم وتسيره في اتجاه خاص يلائم البيئة التي يعيش فيها. وهذه الأقاليم المناخية هي:

١- المناخ الاستوائي الحار الرطب ٢ – المناخ "السوداني" ٣ – المناخ الموسمي ٤ – مناخ الصحراوات الحارة	في البلاد الحارة Hot lands
٥ – مناخ البحر الأبيض ٦- المناخ المعتدل الدافئ البحري (الصين)	في البلاد المعتدلة الدافئة Warm Temperate Lands
٧ – المناخ المعتدل البارد البحري ٨- المناخ القاري ٩ – المناخ اللورنسى	في البلاد المعتدلة «الباردة» نوعًا Cool emperate Lands

١٠ – المناخ البارد | في البلاد الباردة
١١ – المناخ القطبي أو الصحراوات الباردة | Cold Lands

(١)

الاستوائي The Equatorial Climate

مناخ الغابات الحارة الرطبة دائمة الخضرة (السلفاس)

المناخ

يوجد هذا النوع من المناخ في المنطقة المحدودة بخطى عرض ٥ شمالًا وجنوبًا من خط الاستواء، والحرارة فيها مرتفعة غير متغيرة كثيرًا طوال السنة ويتراوح متوسطها بين ٧٨°، ٨٠° ف.

كذلك تسقط الأمطار طول السنة نظرًا لشدة الحرارة وما يتبعها من كثرة البخر والتصعيد والتكاثف Convectional Rain، غير أنها تكثر في الاعتدالين الربيعي والخريفي.

ومن الأمثلة الدقيقة لهذا المناخ حوض الكنغو في أفريقية وحوض الأمازون في أمريكا الجنوبية – ويتمثل أيضًا في جزائر الهند الشرقية والغربية وغانة الجديدة.

النبات

يكثر النبات في هذه المنطقة لكثرة الرطوبة والحرارة، ولذا تشتبك أغصان الأشجار وتلتف النباتات المتسلقة woody climbers حول

الأشجار الضخمة للوصول إلى الضوء الذي قلما ينفذ إلى جوف الغاية، وأخشاب الأشجار الاستوائية صلبة كثيرة الأنواع وأهمها الماهوجاني Mahogany والابنوس Ebony.

ولا يخفى أن الغابات الاستوائية موطن شجر المطاط الذي يعتبر جمعه من أهم من السكان في تلك الانحاء وقد تنبه الناس لأهميته فزرعوه في مزارع خاصة واعتنوا به ليزيدوا إنتاجه كما في سيلان والملايو وجزائر الهند الشرقية.

ويكبر أيضًا في هذه الغابات شجر الكينا والكاكاو والمانيوك وجوز الهند كما تشتهر أفريقيا بأشجار زيت النخيل.

الحيوان

ولا يختلف الحيوان عن النبات في حاجة كل إلى الضوء والهواء ولذا امتاز حيوان هذه المنطقة بالتسلق كالقردة، كما تكثر الطيور والزواحف والحشرات.

الإنسان

من الصعب على الإنسان أن يشتغل بالزراعة في الغابات الاستوائية، ولذا اقتصر تقريبًا على جمع الثمار وصيد الحيوان. وليست له حاجة إلى ارتداء الملابس لشدة الحرارة، كما أن مسكنه في الغالب من الاخشاب وأوراق الأشجار وهو خامل لشدة الحرارة والرطوبة متأخر لا يفكر في غده لتشابه أيام السنة ولا يعمل للحصول على رزقه لتوفر غذائه.

(٢)

المناخ السوداني (السفانا)

المناخ

يوجد هذا النوع من المناخ شمال وجنوب خط الاستواء بين خطى عرض ١٠°، ٢٠° تقريبًا ويكثر مطره في الصيف بعد تعامد الشمس بقليل ويعقب ذلك فصل جفاف طويل في الشتاء ويتمثل هذا المناخ في السودان بأفريقيا وحوض الأورينوكو بأمريكا الجنوبية.

النبات

تنمو في هذه الجهات الحشائش الطويلة التي تتخللها الأشجار، في فصل المطر فإذا ما جاء الفصل الجاف ذبلت الحشائش، ويحدث هذا في الشتاء وأوائل الصيف قبل سقوط المطر.

الحيوان

تكثر في السفانا الحيوانات سريعة العدو آكلة العشب كالزراف والغزال، وآكلة اللحم كالأسد والنمر، وقد زودت الطبيعة النوع الأول من الحيوان بسرعة العدو لتمكنه من الهرب من عدوه في جهات كهذه مكشوفة لا تكثر بها المخابئ.

وقد امتاز أيضًا بمقدرته على الاجترار لأنه في غالب الأحيان يزدرد طعامه ازدرادًا خوفًا من مطارديه، فإذا ما أمن على نفسه أخرج الطعام مرة أخرى ليمضغه ويتلذذ به.

الإنسان

ولتوفر الحيوان في هذه المنطقة اشتغل الإنسان بصيده أولا ثم برعيه وإذا كان أغلب سكان هذه البلاد من الرعاة، وهم أكثر استقرارًا من سكان الغابات الاستوائية ولذا كانوا أكثر تقدمًا.

(٣)

المناخ الموسمي The Monsoon Climate

المناخ

لا يختلف مناخ هذا الاقليم كثيرا عن سابقه، غير أن أمطاره أغزر وتسببها الرياح الموسمية. ويستمر فصل الحرارة في الاقليم الموسمي شمال خط الاستواء من مارس إلى يونية، ثم يبدأ المطر من يونيه ويستمر إلى أكتوبر، ولولا هذا لكانت الحرارة أشد قسوة. ويعقب هذا فصل الجفاف الشتوي من نوفمبر إلى فبراير.

ويتمثل هذا المناخ في شواطئ المحيط الهندي الهند وبرما وشمال غرب أستراليا وكذلك في الحبشة.

النبات

تنمو في هذا الاقليم الغابات الموسمية، وهي أقل كثافة من الغابات الاستوائية، وتتجرد أشجارها من أوراقها في فصل الصيف الجاف حتى لا يتبخر ما امتصته من ماء في الفصل المطير، وبهذا تقاوم فترة الجفاف من مارس إلى يونية، وتكثر أشجار الفاكهة كالمانجو والموز، وأشجار الخيزران والنخيل والتيك والسال. والظروف المناخية هناك ملائمة للزراعة ولذا يكثر الأرز في دالات الأنهار والحبوب الزيتية في الجهات

الجافة نوعًا، كذلك يزرع الشاي والبن على سفوح الجبال كما يزرع القطن والذرة.

الإنسان

ولإمكان الزراعة اشتغل الإنسان في الجهات الموسمية منذ القدم بهذه المهنة. ولذا نجد هذه الجهات شديدة الازدحام بالسكان خصوصا في أحواض الأنهار، وكان من جراء اشتغال الإنسان بالزراعة منذ آلاف السنين نشوء مدنيات قديمة قوامها استغلال الأرض كالصين وقد سبق دراستها.

(٤)

مناخ الصحراوات الحارة The Hot Desert Climate

يقع هذا النوع من المناخ في المنطقتين المداريتين شمال خط الاستواء وجنوبه وهي جهات شديدة الضغط، تهب منها الرياح العكسية تجاه القطبين، والرياح التجارية إلى خط الاستواء وبذلك قلما تتعرض لرياح مطيرة. ولعدم وجود السحب في السماء، تتعرض هذه الجهات لأشعة الشمس المحرقة خصوصًا وقت تعامدها، وبذلك تشتد الحرارة جدا أثناء النهار، وللسبب نفسه يمر الاشعاع أثناء الليل فتفقد الأرض حرارتها، وبذلك يكون الفرق اليومي أو مدى الحرارة اليومي **Diurnal Range** كبيرًا.

ويُمكن تقسيم هذه الصحراوات إلى قسمين:

١- الصحراوات الحارة التي تشغل الأقاليم المنخفضة حول المدارين كالصحراء الكبرى وصحراء العرب في نصف الكرة الشمالي وصحراء كلهاري وأتا كاما في نصف الكرة الجنوبي.

٢- الصحرات المعتدلة التي تشغل الهضاب خارج المدارين وهي أكثر برودة من الأولى في الشتاء وقد يغطيها الجليد. وأمثلتها إيران وصحراء جوبي أو شامو في آسيا وصحراء كولورادو في أمريكا الشمالية.

النبات

يندر وجود النباتات والحشائش في الصحراوات الحارة لندرة المطر بل لانعدامه. وقد زودت الطبيعة أمثال تلك النباتات وسائل مختلفة لمقاومة الجفاف، فمنها ما تمتد جذوره إلى الماء الباطني، ومنها ما يخزن الماء في أوراقه السميكة، ومنها ما يحيط جذوعه وأوراقه بطبقة شمعية.

غير أن هذه البقاع الصحراوية قد تشمل الكثير من الواحات الخصبة التي ترويها عيون الماء، وبذا تسهل زراعة النخيل وبعض أشجار الفواكه.

ويمتاز حيوان هذه المنطقة بالقدرة على تحمل العطش والسير على الرمال دون أن تغوص أرجله، ويكاد لونه يشابه لون الصحراء وأهمه الجمل.

الإنسان

ويعيش إنسان هذه الجهات عيشة بدوية، فينتقل بقطعانه من الإبل والماعز من جهة إلى جهة وراء الك ويعيش عيشة مستقرة في الواحات، يشتغل بالزراعة والرعي.

وقد ساعدت سماؤهم الصافية وكثرة أوقات فراغهم على نبوغ الكثيرين منهم في علم الفلك.

ويسكن الرحل في خيام من وبر الحيوان، أما سكان الواحات فيعيشون في منازل دائمة من الحجر أو الطوب.

(٥)

مناخ البحر الأبيض Mediterranean Climate

المناخ

يوجد هذا المناخ في المنطقة المحدودة بخطى عرض ٣٠، ٤٠ تقريبًا شمال خط الاستواء وجنوبه في غرب القارات، وتتعرض في الصيف الارباح التجارية الجافة، وفي الشتاء للرياح العكسية المطيرة، ولذا كان مطره شتاء.

ويتشمل هذا المناخ في حوض البحر الأبيض المتوسط وفي شمال كاليفورنا ووسط شيلى واقليم الكاب وجنوب استراليا.

النبات

يكثر نمو النبات في فصل الشتاء المطير، ويقاوم الجفاف بشتى الوسائل في فصل الصيف، فبعض أنواع النبات كأشجار الزيتون لها أوراق مغطاة بشعر حريري يقيمها الجفاف، وبعضها كالكروم لها جذور طويلة تصل إلى الماء الباطني. وتكثر في هذه الجهات الفواكه كالبرتقال والكمثرى والليمون والعنب الذي يصنع منه النبيذ.

الإنسان

ولقد ساعد اعتدال مناخ إقليم البحر الأبيض على نشوء مدنيات قديمة كمدنية الإغريق والرومان، غير أنه يساعد على الكسل في الوقت نفسه وبذلك لم يحافظ هؤلاء الأقوام على مدنيتهم طويلًا بل انتقلت إلى غرب أوروبا. ومن الملاحظ أن سكان هذا الاقليم سريعو الرضا ويقنعون بالقليل وهذا لا يساعد على التقدم والتفوق.

ويسكن الناس في هذا الاقليم في منازل ذات حوائط سميكة تقيهم حرارة الصيف، ويقضون أغلب أوقاتهم في الخارج (في شرفات المنازل أو المقاهي).

(٦)

المناخ المعتدل الدافئ البحري (الصيني)

Warm Temperate Oceanic Climate

المناخ

يوجد هذا النوع من المناخ في شرق القارات في المنطقة الواقعة شمال مدار السرطان وجنوب مدار الجدي بين خطي عرض ٣٠°، ٤٠° ويتميز بصيفه الدافئ المطير وشتائه الجاف البارد نوعًا. ويتمثل في الصين وشرق استراليا وجنوب شرق الولايات المتحدة وساحل ناتال في أفريقيا.

النبات

تنمو بهذا الاقليم غابات شبيهة بالغابات الموسمية ويزرع به الذرة والأرز.

الإنسان

تزدحم هذه الجهات بالسكان ويشتغلون بالزراعة مثل الصين وجنوب شرق الولايات المتحدة.

المناخ المعتدل البارد البحري

Cool Temperate Oceanic Climate

المناخ

يوجد هذا النوع من المناخ في شمال غرب أوروبا وغرب كندا وجنوب شيلى وتسمانيا ونيوزيلاند. ويتميز بهبوب الرياح العكسية عليه طول السنة، ومطره دائم وهو ذو شتاء محتمل البرودة وصيف معتدل.

النبات

تنمو بهذا الاقليم الغابات النفضية التي تتجرد من أوراقها في فصل الشتاء **Decidious Forests**، وأهم أخشابها البلوط **Oak** والدردار **Elm** والبثولا **Birch**. وقد اجتثت هذه الغابات من الكثير من البلاد لاستخدام الأرض في الزراعة والرعي، وأهم الغلات الزراعية الشوفان والشيل والشعير ويزرع القمح في بعض الجهات غنية التربة. وتربي الأغنام بكثرة على سفوح التلال الجافة. وقد ساعد هذا على شهرة هذا الاقليم بمنتجات الألبان **Dairy Broduce**.

الإنسان

يساعد هذا المناخ على النشاط والعمل، إذ لاتصل الحرارة في الصيف إلى درجة تسبب الكسل والخمول، كما أن برودة الشتاء تستلزم العمل للتدفئة، وبذلك تركزت المدنية الحالية في شعوب شمال أوروبا. بعد أن كانت في حوض البحر الابيض قديمًا.

(٨)

المناخ القاري Temperate Continental Climate

المناخ

يتميز هذا المناخ بتطرفه أي بارتفاع حرارته صيفا وانخفاضها شتاء، وذلك لوقوعه داخل القارات بعيدا عن البحار، وتسقط أمطاره القليلة في الربيع وأوائل الصيف، حين تتوغل الرياح العكسية إليه لخفة الضغط. ويتمثل هذا النوع من المناخ في إقليم البريري في وسط كندا **The Prairies** وسهوب جنوب روسيا وجنوب سيبريا **The Steppes**.

النبات والحيوان

تنمو في هذا الاقليم الحشائش القصيرة في فصل الربيع وتذبل في فصل الصيف حين تشتد الحرارة. ويكثر فيه الحيوان سريع العدو كالخيل وآكل العشب كالأغنام.

الإنسان

وسكان هذا الإقليم من الرحل الذين ينتقلون بقطعانهم وراء الكلأ، وأهم حيوان لديهم هو الحصان، ولذا كانوا مهرة في ركوب الخيل وقد كان الغزوات هؤلاء الرعاة أثر عظيم في التاريخ كما بينا سابقًا.

(٩)

المناخ الورنسي The Laurentian Climate

المناخ

يوجد هذا النوع من المناخ في أطراف القارات الشمالية في العروض المقابلة لإقليم غرب أوروبا (٤٠ – ٦٠) ولذا كان شتاؤه أكثر برودة بحيث تتجمد مياه بعض موانيه كمنتريال، كما أن صيفه أكثر حرارة. ولا تصل إليه الرياح العكسية مطلقا. ويتمثل في اقليم نهر سنت لورنس والبحيرات العظمى وإقليم نيوانجلند في الولايات المتحدة.

النبات والإنسان

تنمو به الغابات النفضية كإقليم غرب أوروبا. ويساعد هذا المناخ على النشاط والعمل كمناخ غرب أوروبا ولذا كان الإنسان في هذا الاقليم شبيها بالإقليم السابق من حيث تقدمه ورقيه، ولنا في اليابان مثل لذلك.

(١٠)

المناخ البارد The Cold Temperate Climate

المناخ

يوجد هذا النوع من المناخ في شرق القارات الشمالية (أوراسيا وأمريكا الشمالية) وفي الجنوب الأقصى لأمريكا الجنوبية وعلى مرتفعات نيوزيلند.

ودرجة الحرارة في هذا الاقليم منخفضة بوجه عام، ولا يزيد متوسطها السنوي عن ٤٠° ف، وكثير من جهات هذا الاقليم يقل متوسطها عن درجة التجمد. والصيف فيه قصير قلما ترتفع حرارته أكثر من ٧٠° ف، وأغلب الأمطار هناك ثلجية تتراكم على الارض طوال فصل الشتاء، فاذا جاء الصيف ذابت الثلوج وتحولت الارض إلى مستنقعات، ويتمثل هذا النوع من المناخ في أركنجل ولننجراد في روسيا وفركويانسك في سيبريا.

النبات والحيوان

تسود هذا الاقليم الغابات الصنوبرية Coniferous Forests ذات الأوراق الإبرية السميكة، وهي مورد الأخشاب اللينة في العالم كالصنوبر والشربين، وأهم جهاتها غابات كندا وروسيا واسكنديناوه. أما شمال آسيا فبالرغم من كثرة غاباته فان صعوبة المواصلات وتجمد المجاري السفلى لأنهاره لم تساعد على شهرة هذا الاقليم بتصدير الأخشاب إلى العالم المتمدين.

وقد زودت الطبيعة حيوان هذا الاقليم كالدب القطبي والثعلب القطبي والذئب القطبي بفراء كثيف يحميه من البرد، وقد أصبح لهذا الفراء أهمية خاصة في التجارة الدولية لندرته وصعوبة الحصول عليه مما أدى إلى ارتفاع ثمنه في الأسواق.

الإنسان

لم تكن هذه الغابات تصلح لمعيشة الإنسان بصفة دائمة، ولذا فان سكانها كانوا من القبائل التي تعيش على أطرافها الشمالية، ولا يؤمونها إلا في فصل الشتاء طلبا للتحطيب وصيد الحيوان في الفراء، ويهجرونها إذا أقبل الصيف وأصبحت الغابات كثيرة المستنقعات.

أما الآن وقد انتشرت المدنية وتمكن الإنسان في هذه البقاع من الزراعة كلا سمحت ظروف التربة كما في جنوب السويد، فقد أصبح في مقدوره استغلال هذه الغابات وأصبحت صناعة قطع الأخشاب وعمل الورق من الصناعات الرائجة في السويد وكندا «أتاوة» – وأصبح العالم يعتمد في الحصول على حاجته من الأخشاب اللينة على هذه البقاع.

وموسم العمل في قطع الأخشاب هو فصل الشتاء، إذ تغطى الأرض بالجليد فيسهل على القوم التوغل داخل الغابات على زحافاتهم. وعندئذ تقطع الأشجار قطعة صغيرة أو كبيرة حسب الطلب، ثم تجبرها الوعول إلى مجاري الأنهار المتجمدة، وتترك هناك حتى يذوب الجليد، فتحمل كتل الاخشاب إلى المرافئ الهامة وأماكن الصناعة التي تقوم عادة عند مساقط المياه حيث تولد الكهرباء.

ويتميز سكان هذه الأصقاع الباردة بنشاطهم وحبهم للعمل وميلهم للألعاب الرياضية وأهمها الانزلاق على الثلج الذي يستلزم حفظ التوازن، ولذا مهر السويديون في فن الرقص. كما أن طول فصل الشتاء جعل القوم ذوي صبر شديد وشغف بالقراءة والاطلاع.

(١١)

الصحروات الباردة The Cold Desert Climate

المناخ

يوجد هذا النوع من المناخ بين الدائرة القطبية والقطب. وشتاء هذا الإقليم طويل بارد وصيفه قصير جدا لا ترتفع فيه الشمس عن الأفق كثيرًا، ويغطيه الجليد ثلاثة أرباع السنة.

النبات والحيوان

لا تنمو به إلا الطحالب والاعشاب القصيرة في فصل الصيف القصير، وأهم حيوانه غزال الرئة والكاريبو وعجل البحر.

الإنسان

يعيش الإنسان في هذه الجهات على صيد الحيوانات البحرية كعجل البحر والبرية الرقة والكاريبو. وهو متأخر، لفقر الطبيعة وقسوتها. ويعيش في جماعات صغيرة دائمة التنقل، كالأسكيمو في شمال آسيا واليوكاغير في شمال شرق سيبريا.

مراجع الكتاب

SEMPLE	Influence of Geographical Environment
D.FORDE	Habitat, Economy and Society
FAIRGRIEVE	Geography and World Power
M.NEWBIGIN	Man and his Conquest of Nature
L.W.LYDE	Man in Many Lands
SVEN HEDIN	From Pole. to Pole
M. BRIGGS	Economic History of England
HAMMOND	The Rise of Modern Industry
GUIDE	Principles of Political Economy
TREVELYAN	History of England
DR. STAMP	The World
DR. STAMP	An Intermediate Geography

الفهرس